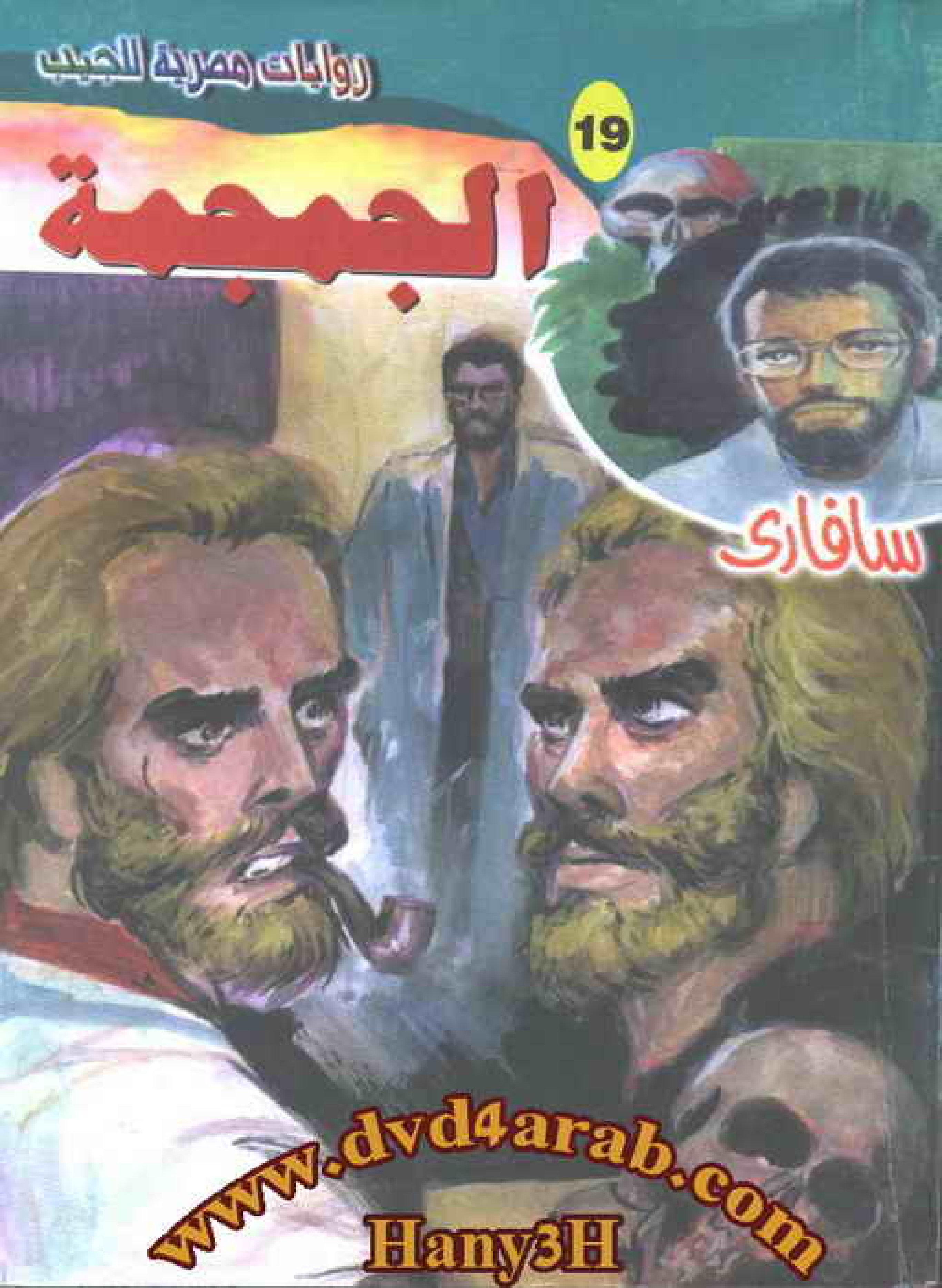

روايات مصرية للجيب
19
الجمجمة
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

* * *

شخصيات القصة

(على الطريقة العتيقة فى السرد)

علاء عبد العظيم : طبيب مصرى متحمس مندفع قليلاً، يجد نفسه فى (كينيا) مع أحب شخص له فى العالم .. ويتورط فى مشكلة غريبة بعض الشىء ..

برنادت جونز : طبيبة أطفال كندية حسناء يهيم بها (علاء) .. ولا دور لها فى هذه القصة إلا إضفاء بعض الحيوية على أحداث كئيبة بطبعها ..

أنفريد ستيجوود : طبيب أعصاب سويدى هو حاليًا رئيس الوحدة فى (كينيا) ، وهو رجل ثقيل الظل من النوع الذى تحب أن تمقته ..

جون ويلسلى : أستاذ تشريح بريطانى ، يهوى دراسة خواص الجماجم ، وقد قابل مفاجأة غريبة حقًا فى أثناء هوايته هذه ..

شارل سينوريه : أستاذ فرنسى مختص بطب المناطق الحارة .. عصبى وغريب الأطوار .. لكنه واسع الثقافة ، وقد أسدى لـ (علاء) عونًا عظيمًا ..

كودايو : ساحر قبيلة بدين من (الكيكويو) يعرف ما هو أكثر ، كما هى العادة فى هذه القصص .. لكن يتضح لنا أنه كان ساذجًا مخدوعًا مثل الجميع ..

الميجور آرثر : ميجور إنجليزى مستعمر عاش هنا منذ مائة عام .. ولا داعى للكلام عنه لأنه مات على كل حال ..

الشجيع : لا يوجد شجيع فى قصصى .. ظننت هذا مفهومًا .. كل الأشخاص مقهورون ضحايا لظروفهم ، وبطولتهم الوحيدة أن يظلوا أحياء يومًا آخر ..

* * *

١ـ المنفى الجميل ..

(كينيا) .. وبالتحديد فى (بورو) على ضفاف بحيرة (تانا) ..

هذا هو المنفى الذى اختاره لنا البروفسور (بارتلبيه) ، وقد قدر أننا لن نفلت فى الغالب من انتقام عبدة الأفاعى ، لأن الأسباب الدينية هى الأقوى دائما .. وهى التى تجعل هؤلاء القوم يبحثون عنا بحماسة منقطعة النظير ..

وكان يعرف حدوده : لاتوجد حماية قادرة على جعل الثعابين التى تزحف على الوسادة ، تمتنع عن ذلك ..

لهذا أرسلنا إلى وحدة (سافارى ـ ١) فى (كينيا) لفترة مفتوحة .. ربما تطول شهرًا أو شهرين .. عامًا أو عامين . لايهم .. إن (كينيا) بحاجة إلينا ، و(بسام) التونسى كما تذكرون عائد من هناك حالاً ، حيث كان

يكافح مرض الـ (كالا آزار) الرهيب .. فقد جرت العادة على انتداب أحد من وقت لآخر كى يعيش هناك ..

توجد وحدة (سافارى) هناك فى (بورو) .. كما تعلمون تتخذ وحدات (سافارى) دائمًا مكانها فى موضع ناء من البلاد ، بعيدًا عن العواصم والمدن المهمة ، لأن منظمة الصحة العالمية تظفر بهذه دوما .. وبالطبع ليس بوسع (سافارى) أن تفوز بربع ما تفوز به منظمة الصحة العالمية الثرية القوية واسعة النفوذ .. المنظمة التى تشبه اليونسكو واليونيسيف والأمم المتحدة شهرة ، ولها مجلات ودوريات ومواقع إنترنت ، ومكاتب إقليمية فى كل مكان ..

لكن وحدة (سافارى) بـ (كينيا) لها أهمية خاصة متفردة .. لنقل إنها المركز لكل وحدات (سافارى) فى القارة السوداء .. أى أن الخواجة (سافارى) شخصيًا ـ لو كان له وجود ـ يعيش فى (كينيا) .. وهذا يعنى كذلك أنها أكثر ثراء وأفضل تجهيزًا من وحدة (الكاميرون) البائسة إلى حد ما ..

أضف لهذا أن (كينيا) هى قلب المنطقة الاستوائية .. ربما هى القلب الثانى بعد الكونغو طبعًا .. لكنها تزخر بالمشاكل ، وأطباء المناطق الحارة يجدون فيها كنزا ومعينا لا ينضب ..

بقى أن نقول إن (كينيا) كانت منفى غير اختيارى لنا ، والمرء لا يحب أو يكره منفاه ..

إنه يذهب إليه فحسب ..

* * *

كما تعرفون كنت مع (برنادت) .. ولمن يقرءون هذا الكتيب باعتباره أول لقاء لهم مع (سافارى) ، أقول إن (برنادت) طبيبة أطفال كندية تعمل فى وحدة (سافارى) ! فقط .. لن أضيف أية تفاصيل حتى أعرف حقيقة موقفى ..

بالنسبة للمخضرمين منكم ، أقول إن هذه الرحلة كانت رحلة الأحلام بالنسبة لى .. أنت ومن تحب منفيان فى هذا الركن من العالم .. بالإضافة إلى

الخطر الداهم الذى كان يطاردنا .. كل هذه عوامل لا بد من أن تقربنا كثيرًا جدًّا جدًّا .. يقول علماء الاجتماع إنه لو وجد رجل – أى رجل – وامرأة – أية امرأة – نفسيهما على جزيرة فى المحيط ، فإن الاحتياج الإنسانى سيجعلهما يهيمان حبًّا ببعضهما .. حتى لو كان الرجل من طراز (فرانكنشتاين) والمرأة من طراز (الغولة) ..

إذن .. نهاية القصة محددة وقد رتبها لى القدر .. ترى هل حدث ما كانت أمى تحكيه لى فى طفولتى ؟ هل صاح ذلك الطائر عند ولادتى ، يقول إن فلانة لى وأنا لفلانة ؟ أمى ما زالت تؤمن بهذا .. أراها فكرة شاعرية ، ولكن ليتنى كنت هناك ساعتها ! لماذا لم تصغى جيدًا يا أمى إلى ما صاح به ذلك الطائر لحظة ولدت أنا ؟

كنت مسرورًا لكنى قررت ألا أكون البادئ بأى شىء .. سأجعل شخصيتى شخصية (ردود أفعال) كما يقول السينمائيون ، بينما (برنادت) هى التى ستقرر ..

بقى أن أقول إن المدير نصح (بودرجا) كثيرًا بالذهاب معنا ، لكن هذا رفض بشدة .. قال إنه لن يترك أسرته ، ثم إن السحرة لا يحملون ضده شيئًا خاصًا .. هو مجرد عامل بائس عمل معنا كمترجم .. ولن يبلغ هؤلاء القوم تلك الدرجة من الحماسة الدينية .. ويا لغباء الإنسان ! يقتلوننا لأننا فتكنا بثعبان أصلة ثقيل الظل !

وهكذا أنا الآن فى (كينيا) مع (برنادت) .

أعانى بالطبع الافتقار إلى تلك التفاصيل اليومية الصغيرة ، وأتمنى أن أسمع شيئًا جديدًا من (شيلبى) .. أو أواجه (بارتلبيه) طبيب القلب الذى يحبنى حقًا ، لكنه يكره أن يعلن هذا لأن واجب المدير أن يشعر من معه بالتضاؤل .. (هيلجا) و(باركر) اللذان يقاومان الرغبة فى التهام حنجرتى ، و(ليفى) الذى يتمنى أن أسدى له معروفًا وأموت .. و(بسام) بحماسته العربية ودروس اللغة الفرنسية و(الرؤى) التى لا يكف عن تلقينى إياها .. و ... و ...

لكننى سأتعود .. كل شىء يمكن التعود عليه ، وكما قال (كامى) فى (الغريب) : يمكن للمرء أن يسجن فى برميل لا يرى منه إلا السماء ، لكنه سيعود نفسه على هذا ، ويتعلم كيف يعد السحب والطيور المارة فوق رأسه ..

* * *

والآن تعال أقدم لك الوحدة .. لن أتكلم كثيرًا عن (كينيا) لأن القصة القادمة تحتاج إلى خلفية كاملة عن هذا البلد ، ولو أخبرتك بالنقاط الأساسية الآن فلسوف أضطر إلى تكرارها فى الكتيب القادم .. إذن نرجئ هذا قليلاً ..

الوحدة هنا تتكون من حرف (L) كبير ، ويبدو أن هذا تصميم (سفارى) الدائم فى كل مكان من إفريقيا ، وهو تصميم مألوف لأطباء الوحدات الريفية فى مصر ، لأن جميعها مصمم بالشكل ذاته .. لكن هناك - طبعًا - فارقًا هائلاً فى الحجم والفخامة ..

الضلع الطويل لحرف (L) هو العيادات فى الطابق الأرضى، والعنابر فى الطابقين العلويين .. الضلع القصير يحوى مساكن الأطباء والمكاتب الإدارية والمشرحة والصيدلية .. تحيط بالوحدة حديقة غناء، ويوجد نصب تذكارى كبير يمثل البارون (فون رامشتيت) الذى أسس (سافارى) ، وقد جثا على ركبتيه أمامه إفريقى مذعور ملهوف .. وهو تمثال لا يريحنى كثيرًا لأن رائحة العنصرية تزكم الأنف حيثما كانت .. كنت أفضل أن يقف الإفريقى على قدميه وقفة الصديق لا العبد المذعور ..

لكن ـ على كل حال ـ لا أحد يملك القلم ولا يكتب به اسمه .. هم ـ الأجانب ـ بنوا الوحدة والتمثال وصنعوا الأدوية والأمصال ، وهم من كتبوا مراجع الطب التى نستعملها .. لهذا صار من حقهم تمامًا أن يقولوا ما يشاءون ، وعلى المتضرر اللجوء للقضاء ، أو عمل كل هذا بنفسه !

والآن تعال أقدم لك المدير ..

الدكتور (أنفريد ستيجوود) هو ـ كما لاحظتم من الاسم ـ سويدى .. وهو يختلف كل الاختلاف عن (بارتلييه) المكتنز بالشحم والعواطف .. إنه بارد كالموت .. سمج نوعًا ما .. أنيق جدًا إلى درجة قريبة من الأنوثة .. وبالتأكيد لا يخرج قميصه من السروال كل ثلاث دقائق مثل (بارتلييه) ، ولا ينسى السروال نفسه مفتوحًا ، ولا يتصبب عرقًا .. باختصار : ليس فى هذا الرجل أى شىء آدمى ..

تأمل عينيه الزرقاوين الميتتين ولحيته الشقراء المنمقة بعناية ، وشعره الذى رحل عن مقدمة رأسه .. تأمل هذا وقل لى : هل هذا رجل لطيف المعشر ؟

(أنفريد ستيجوود) طبيب أعصاب .. وقد كف عن ممارسة الطب منذ زمن لأن الإداريات استهوته ..

له مكتب فخيم يذكرك بمكاتب وكلاء الوزارات عندنا .. وكنت أحسب مصر هى البلد الوحيد الذى بلغ ثراؤه درجة تجهيز مكاتب كهذه ، لكن يبدو أن (كينيا) على نفس الدرجة من الثراء ، التى لا تحلم بها الولايات المتحدة نفسها ..

هناك أربع سكرتيرات حسناوات مثل سكرتيرات وكلاء الوزارات عندنا .. وكاتبان .. مع عدد هائل من أجهزة الحاسب الآلى .. والحقيقة أننى كنت أحب أكثر البساطة العملية فى مكتب (بارتلبيه) الذى يكتب مراسلاته بنفسه ، ولا يضع فى حجرته إلا ما يلزم مدير (سافارى) ، لا أكثر ولا أقل .. سكرتيرة (بارتلبيه) حسناء نعم ، لكنه لا يرى وجهها إلا ليوجه لها اللوم لأنها لم تستدعنى إلى المكتب بسرعة البرق ، عندما يدعونى فى الساعة السابعة ..

المهم أننى و(برنادت) جلسنا فى مكتب (ستيجوود) نبتسم فى رقة كاشفين عن أسناننا الجميلة ، على حين راح الرجل يطالع الملفين اللذين تلقاهما من وحدة (سافارى) الأولى .. بيتنا ..

قال لى وهو يمط شفته السفلى فى اشمئزاز أو (ألاطة) لا أدرى :

ـ « أنت إذن لم تحصل على مؤهل عال بعد يا دكتور (عبد العظيم) .. »

قلت له وأنا أمط شفتى العليا :

ـ « أدرس الآن البورد الأمريكى للجراحة .. »

أغلق الملف وقال :

ـ « لن نكف إذن عن اعتبارك طبيبًا مقيمًا تفعل كل شىء .. أعتقد أنك كنت تمارس هذا الدور فى (سافارى ـ 4) »

ـ « لا أمانع فى تنفيذ ما يطلب منى يا سيدى .. »

ثم قال الكلمة التى كنت أتمنى ألا يقولها لكننى عرفت أنه سيقولها :

ـ « إن (بارتلبيه) مدير ذو كفاءة علمية ، لكنه من الناحية الإدارية رخو تمامًا .. يجب أن تنسى كل أيام المرح واللهو هناك .. فهنا الأمر يختلف .. »

هو إذن من الأشخاص الذين يعتبرون الإدارة حربًا ، يجب على المدير فيها أن يكون وغدًا ويحطم الآخرين .. رددت التحية بأسوأ منها ، فقلت :

- « ليس رخواً ياسيدى .. إنه فقط مهذب ومتفاهم .. وهو شىء لايفهمه البعض .. »

تظاهر بأنه لم يسمع هذه المعلومة ، وقال وهو يضع الملفين جانبا :

- « ليكن .. مرحبًا بكما .. والآن ستقابلان د. (جوتييه) نائبى ، الذى سيخبركما بكل شىء .. إن وقتى لايسمح لى بالتفاصيل .. »

وخرجت أنا و(برنادت) ، وتبادلنا نظرة ذات معنى .. واضح أن أيامنا هنا ستكون غاية فى السوء ، أو - على الأقل - لن تكون سعيدة مليئة بالمرح .. إن هذا الرجل متعكر المزاج يصلح كى يكون أخا روحيًا لـ (باركر) نائب المدير فى (سافارى - 4) .. وقالت لى (برنادت) وهى ترسم (التشنيكة) الشهيرة على أنفها :

- « لايجب أن أكون قصصية بارعة كى أعرف أنك ستصطدم بهذا الرجل .. وليكونن صدامًا كونيًا كصدام الكواكب .. شخصيتك العدوانية العصبية لن تتحمل هذا الإغراء .. »

قلت لها وأنا أهز كتفى :

- « صدام أو غير صدام .. ليس هذا مكاننا ، ولسوف نغادره سريعًا .. فلنتحمل أيام المنفى هذه ولسوف تمر كأى شىء آخر .. فقط أرجو ألا تأتى المتاعب لى بالذات كما اعتادت أن تفعل فى (أنجاوانديرى) .. »

وكانت المتاعب فى الطريق طبعًا ..

لماذا ؟ لأن القصة هكذا دائمًا ..

* * *

٢- رجل يعشق الجماجم ..

انغمست (برنادت) طبعًا فى عواء الأطفال وبكائهم .. وهذه هى فكرتها عن الاستمتاع بوقتها على كل حال ..

أما أنا فقد تعرفت أطباء الوحدة .. أعنى أننى عرفت أكثرهم .. مجموعة لابأس بها ، أو على الأقل ليس بينهم من يشوى الأطفال أو يقطع حناجر النساء ، ويبدو أن العثور على مجموعة كهذه صارت صعبة بعض الشىء هذه الأيام ..

لا أرى داعيًا لأن أعرفك بهم لأن هذه المرحلة مؤقتة ، ولانفع لك من أن أحملك بالمعلومات والأسماء لأشخاص لن تراهم أكثر من بضعة كتيبات ..

هناك فقط اثنان جديران بأن تعرفهما لأنهما غير موجودين فى (سافارى) بيتى ..

الأول هو أستاذ فرنسى اسمه (شارل سينوريه) ، وهو مختص بطب المناطق الحارة .. نحيل جدًا كعود الثقاب ، وعصبى وغريب الأطوار .. لكنه واسع الثقافة وملم بالحضارة الإنسانية بشكل موسوعى .. أضف لهذا أنه موسيقى جيد ، ومن ناحية الطب لم يكن أقل مستوى من (شيلبى) ، لكن دون ميل هذا الأخير إلى الاستعراض المسرحى ..

الثانى هو أستاذ تشريح إنجليزى كهل[*] فى منتصف الأربعينات من العمر ، اسمه (جون ولسلى) .. وهو من أساتذة المراجع الطبية المعروفين ، الذين يدخنون الغليون وتبرز سوالفهم الكثة على جانبى الرأس ، مثل قرود البابون .. وللمزيد من غرابة المظهر كان يربط هذين السالفين بشاربه مثل صور الإمبراطور (غليوم الأول) التى تراها فى كتب تاريخ المدرسة الثانوية ..

هذا عن الإضافات التى أضافها بنفسه .. أما عن الأجزاء التى لاحيلة له فيها ، فهى الجبهة العريضة

[*] لا خطأ هنا .. الكهولة هى سن اكتمال الرجولة فى منتصف العمر ، وليست مرادفًا للشيخوخة .

إلى حد لايصدق ، والوجنتان البارزتان ، والأنف الضخم المحدد الموحى بقوة الشكيمة ، والجرح القديم الذى لم يلتئم جيدًا على خده الأيمن ..

بالطبع لادور لأستاذ تشريح فى وحدة (سافارى) ، لكنه كان يقوم بتشريح المرضى الذين تحيط الأسئلة بأسباب وفاتهم .. كما أنه كان يجرى بعض الدراسات الأنثروبولوجية هنا على الأهالى ..

حين قابلته أول مرة ارتجفت فرقًا منه .. وتوقعت أن يصفعنى دون كلمة ودون سبب ، ثم يحملنى من عنقى ليلقى بى على الأرض .. يوجه لى الركلات ، ويقف فوق صدرى ليمارس (الدبدبة) مثلاً ..

لكنه كان ودودًا مهذبًا .. صافحنى بكف بحجم هذه الصفحة ثلاث مرات ، وهى المصافحة الأولى والأخيرة فى حياتى بالنسبة له كإنجليزى .. وقال إنه يتمنى أن أجد السعادة هنا ، وإننى أبدو له شابًا شجاعًا كما سمع عنى بالفعل .. ودعانى إلى أن أزوره فى معمله فى أقرب فرصة ممكنة ..



الثانى هو أستاذ تشريح إنجليزى كهل فى منتصف الأربعينات من العمر ، اسمه (جون ولسلى) وهو من أساتذة المراجع الطبية المعروفين ..

سألت عنه أحد الأطباء الشبان هنا ، فقال لى :

- « (جون ولسلى) رجل لطيف .. لكنه يحمل بعض العقد الدفينة .. وهو من النوع الذى لايفتتن بفكرة حتى ..... »

ثم ابتسم فى خبث وقال :

- « لكن لماذا أثرثر ؟ أنت ستبقى هنا وتعرف كل شىء .. »

قلت له فى غيظ :

- « هذا جميل .. لكنك تقدم لى مايوفر على شهورًا من الصراع .. كل ما أطلبه هو أن تقول لى : هذا جيد .. هذا سيئ .. وبعد هذا يمكن أن أتخذ تدابيرى الخاصة بنفسى .. ما تقدمه لى هو ما يقدمه أى مرجع طبى .. بدلاً من أن نضيع الوقت فى اكتشاف سبب الكوليرا كلما ظهر طبيب جديد ، يخبرنى الكتاب بما عرفه (كوخ) من زمن .. »

ابتسم مفكرًا فى كلماتى ثم قال :

- « (جون ولسلى) هو الوحيد من بيننا الذى ولد فى (كينيا) .. بل إنه تربى لدى إحدى الإرساليات .. كان رضيعًا حين هلك أبوه المستكشف الإنجليزى وزوجته ، حين وقعت ثورة (الكيكويو) العظمى .. »

- « هل ثار (الكيكويو) ؟ »

- « نعم .. إن ثورتهم فى أوائل الخمسينات هى تاريخ لاينسى فى هذا البلد .. لقد أرادوا استرداد أرضهم من البريطانيين ، وكان أن قامت ثورة (الماو ماو) التى ذبح فيها عدد لابأس به من البريطانيين ، مع آلاف (الكيكويو) ، وقد تم إخمادها بسرعة كعادة الثورات فى هذا الزمن .. كان زعيم الكيكويو الشهير هو (جومو كينياتا) ، وقد سجنه البريطانيون لكن أفرجوا عنه عام 1961 .. وبعد عامين استقلت (كينيا)[*] »

- « وتقول إن (ولسلى) فقد أبويه آنذاك ؟ »

(*) أول خمسة أعوام من الستينات شهدت استقلال إفريقيا كلها بالكامل تقريبًا .. وكان المستقبل يبشر بالخير ، لكن الصراعات القبلية والحروب الأهلية عادت بهذه الدول إلى وضع أسوأ بكثير من أيام المستعمر ..

- « نعم .. يا لها من فوضى !! لقد وجد رجال الإرساليات الرضيع ـ وعمره أيام ـ يعوى وحده فى الدغل المجاور للمزرعة ، وعلى بعد أمتار وجدوا جثتى الأبوين .. ولو لم يسمعوه لكان وجبة سريعة لأحد الوحوش .. لم يكن بين البريطانيين فى هذه المزرعة امرأة حامل إلا أم (ولسلى) ، وهكذا فقط أمكن للطبيب أن يعرف من هو ، وأطلق عليه اسم (جون) ..

« تربى فى الإرسالية ، ثم تكفل بعض البريطانيين بإرساله إلى بريطانيا ليدرس الطب .. وهناك عرف جذوره وعرف من هو حقًا .. وعاد إلى هنا ليعمل فى وحدة (سافارى) لأنه لايستطيع الابتعاد عن الأرض التى مات فيها أبواه .. »

قلت وأنا أفكر فى هذه القصة المعقدة :

- « لا أعتقد بعد كل هذا أن الرجل معقد .. لابد أنه مجنون !! »

ضحك كثيرًا لما قلت ، وغمغم :

- « لا تقل هذا .. الحقيقة أن الرجل ـ ما عدا مظهره

الغريب ـ متزن تمامًا .. فقط هو من العلماء الحقيقيين .. العلماء الذين حين تسيطر عليهم فكرة ما لا يوقفهم شىء .. »

ثم نهض وقال وهو ينظر فى ساعته :

- « إن الرجل مولع بالجماجم أكثر من أى شىء آخر .. »

* * *

سرنى أن الأيام الأولى لى هنا كانت فى قسم الجراحة .. وأدركت أننى لن أعمل كالمسمار الذى يدسونه فى أية ماكينة معطلة هنا .. لن أقضى الصباح فى المعمل والظهر فى الاستقبال والمساء فى قسم النساء مثلما يفعلون معى فى (سافارى ـ 4) يبدو أن طابعهم هنا الثبات ..

بل إنهم منحونى الفرصة للمشاركة فى بعض الجراحات .. فهم هنا أجرأ قلبًا من جراحى (سافارى ـ 4) .. والحقيقة أننى جراح جيد ، دون أن أبذل فى هذا مجهودًا كبيرًا .. أنا جراح جيد فقط

لأننى أحب الجراحة .. لا أحد يستطيع إجادة شىء لا يحبه .. ولم يكن (كوخ) يسهر الليالى وسط مزارع البكتريا كى ينقذ البشرية .. كان يسهر لأنه يحب ذلك ويستمتع به ..

وفى الكافيتريا كنت أقابل (برنادت) ، فنجلس شاعرين أننا ننتمى إلى عالم واحد عزيز بعيد .. والمشكلة هى أنها مشغولة جدًا جدًا حتى إننى لم أعد أراها إلا فى هذه الساعات الثمينة ..

لم تكن راضية عن غرفتها لأنها مشتركة مع طبيبة مجرية .. ولأنها لم تضع لمساتها على كل شىء فى الغرفة كعادتها ، ولأن زميلتها فى الغرفة تدخن طيلة الليل وليس بينهما شىء واحد مشترك ..

كان المدير قد مر على عيادة الأطفال أكثر من مرة ، ويبدو أنه كان حريصًا على اكتشاف خطأ ما .. لكنها كانت تؤدى عملها كالعادة مع فريق العمل .. والحقيقة أن (برنادت) مكسب علمى ومعنوى فى أى موضع تدخله ..

- « قال إننى جميلة ! »

ابتلعت اللقمة التى توقفت فى حلقى كأننى ابتلعت ضفدعًا ، وسألتها ضاغطًا على كلماتى :

- « من قال هذا ؟ »

- « مدير (سافارى) .. البروفوسور (ستيجوود) شخصيًا .. »

- « وكيف تعطينه الحق فى أن يقول هذا ؟ »

- « هى مجرد مجاملة لا أكثر .. »

- « فى الغرب يسمون هذا تحرشًا .. وينسفون من يتورط فيه نسفًا .. حتى كلمة المجاملة يمكن اعتبارها تحرشًا ، ولو كنت مكانك لقاضيته إلى أن يضطر لبيع جواربه .. »

لم تكن من النوع الذى يعابث الرجل بوصف من أطروا جمالها .. لم تكن تمارس هذه اللعبة الأنثوية العتيدة .. فقط هى كانت تقرر حقائق ، وقد قالت فى

خفة وهى تداعب خصلات شعرها صانعة سالفًا أمام أذنها :

- « لا أدرى لماذا تعقد الأمور إلى هذا الحد .. لاتكن طفلاً .. »

- « كنت أعرف أن هذا الرجل رقيع .. تأكدت من هذا من اللحظة الأولى .. رجل متزوج مثله ولا يجد ما يفعله إلا مغازلة الـ ..... »

قاطعتنى باسمة :

- « ومن قال إنه متزوج ؟ إنه أشهر عزب فى وحدة (سافارى) هنا !! »

- « إذن هو معقد ومخبول ولم يجد الحمقاء التى تقبل .. »

- « هل تعتقد أن نساء كثيرات يرفضن الزواج من مدير (سافارى) ؟ تذكر أنه ما زال شابًا نوعًا ، وليس غولاً من ناحية المنظر .. على الأقل ليس جوال شحم مثل (بارتلييه) .. »

فى غيظ قلت لها :

- «أولاً ليس معنى كونه مديرًا لأكبر وحدة (سافارى) ، أنه هو رئيس مجلس إدارة (سافارى) .. إن مجلس الإدارة موجود فى (النمسا) وهم لايجاملون مخلوقًا .. ثم إن الرجل لا يساوى قلامة ظفر من (بارتلييه) .. و...... »

وفطنت إلى أننى ألوح بالسكين فى الهواء ، وأننى أصيح حتى التفت من حولى لى ، وأن الحرارة فى وجهى تقول إنه بالتأكيد أحمر كالطماطم .. هدأت قليلاً .. لو كانت تحاول استفزازى فقد نجحت فى هذا بدرجة امتياز ..

مر الغداء كليلة سوداء ، وقررت بعده أن أذهب إلى (ولسلى) .. هذا البريطانى غريب الأطوار سيعرف كيف ينسينى عصبيتى ، بوجهه العملاق ولحيته المخيفة ونظراته المجنونة .. إنه سيكون اللطف بعينه ..

* * *

طرقت بابه عدة مرات ، حتى جاء صوته الغليظ يدعونى إلى الدخول .. من الغريب أن غلاظ الأجسام يكونون كذلك غلاظ الأصوات .. لحسن الحظ أنهم ليسوا بالضرورة غلاظ القلوب ..

أشرق وجهه حين رآنى ، لكن عينى لم تثبت عليه .. ثبتت على عشرات الجماجم المتناثرة هنا وهناك ، والتى ثبتت على حوامل تجعلها كرءوس التماثيل النصفية .. كان هناك صلصال .. الكثير منه .. وآلات قياس دقيقة تذكرك بآلات الملاحة أو ما يستعمله الفلكيون ..

فى منتصف الغرفة كان مكتبه ، وعليه حاسب آلى وماسح ضوئى وطابعة .. وكانت على شاشة الحاسب الآلى صورة هولوجرافية لجمجمة .. صورة من الطراز الذى ترى طبقاته فوق بعضها ، ويمكن تدويرها لتراها من عدة مساقط ..

أما الجماجم فكان بعضها عاريًا تمامًا ، بينما كسى بعضها بطبقات متفاوتة السمك من الصلصال .. وقد ثبتت فى محاجر بعضها عيون من صلصال ، راحت تتراكم فوقه طبقات عضلات العين ..

شىء واحد تأكدت منه .. هذا المكان أهم مكان فى الوحدة ، ومن الواضح أننى سأجد متعة لاتوصف هنا ..

قلت له وأنا أنظر حولى :

ـ « هذا أتيليه مثال وليس معمل طبيب .. »

ابتسم وأخرج الغليون من فمه وسعل وقال :

ـ « كل ضيوفى يقولون الشىء ذاته .. ولا أدرى إن كان هذا مديحًا أم ذمًّا .. »

ثم أشار لى بالجلوس وجلب من ثلاجة صغيرة علبة من المياه الغازية الباردة فتحها لى ..

سألته وأنا أفتح العلبة :

ـ « ما نوع النشاط الذى تمارسه هنا بالضبط ؟ هل تصنع نماذج يدرس عليها الطلاب التشريح ؟ »

ـ « ليس بالجماجم الحقيقية يا صديقى .. ليس بالجماجم الحقيقية .. إن ما أمارسه هنا هو فن معروف

فى الغرب ، وله سادته .. وقد تعلمته فى (مانشستر) فى قسم التشكيل الطبى ..

« كان الأستاذ (ريتشارد نيف)(*) أول من علمنا أن الجمجمة تحدد شكل الشخص ، وأنه يمكن استنتاج شكل اللحم من العظام .. وكان يستعمل قوالب من الصلصال والجص للوصول إلى الشكل الأخير للشخص المعنى .. لقد استعان به رجال الشرطة كثيرًا حين يجدون جمجمة لا يعرفون من هو صاحبها .. وكان يقوم بتكوين الشكل مستعملاً حاسته الفنية بالإضافة إلى مقاييس طبية صارمة ، ولم يكن أحد يتحقق من دقته إلا حين يعرفون صاحب الجثة ويرون صوره القديمة ..

« وكان فى نهاية عمله يلون التمثال بلون الجلد ، ويضع على رأسه شعرًا مستعارًا .. طبعًا كان الشارب واللحية أمرين تقديريين متروكين للاحتمالات .. وهو على كل حال يصور عمله بعد تثبيت شارب ولحية ، وعمل عدد من التباديل والتوافيق حتى لا يترك احتمالاً .

(*) واضح طبعًا أن (نيف) شخصية حقيقية ..

« تعلم كثيرون هذا الفن ، وكنت أنا منهم .. لو لم يهتم أستاذ التشريح بهذا فمن يهتم ؟ ويمكن القول إننى مزجت بين هذا الفن وعلم الأنثروبولوجى فى خليط فريد من نوعه .. »

بالطبع كنت قد سمعت عن هذه الطريقة من قبل ، لذا سألته وأنا أتأمل التماثيل :

ـ «وطبعًا قمت أنت بإدخال الكمبيوتر فى الموضوع ؟»

نظر للشاشة فى إعزاز وقال :

ـ « أستعمل تقنية معقدة كالتى يستعملها فنانو الرسوم المتحركة أو جراحو التجميل المعاصرون .. أنقل الجمجمة إلى الحاسب الآلى وأدعه يأخذ قياساتها ويركب صورة رقمية ثلاثية الأبعاد لها .. هذا يفيدنى أيما فائدة فى تشكيل الصلصال وتحديد حجم القطع .. وفى النهاية يقوم الكمبيوتر بعمل التباديل والتوافيق المختلفة للشكل النهائى » .

وحرك (الفأرة) ليتحرك المؤشر على الشاشة مشيرًا

إلى شىء ما وضغط .. وعلى الفور ظهرت عشر صور مختلفة متلاصقة مصطفة تمثل رجلاً أسود ـ نفس الرجل ـ وهو أصلع الرأس .. ومرة أصلع الرأس وبلحية .. مرة أصلع الرأس بشارب .. مرة بشارب ولحية وشعر طويل مجعد ... وهكذا ..

سألته وأنا أتأمل المنظر مبهورًا :

ـ « أية جمجمة هذه ؟ »

أشار إلى جمجمة موضوعة جواره على المكتب ، وقال :

ـ « هذا المحارب الشجاع من قبيلة (الماساى) .. لقد لقى حتفه فى القتال منذ خمسين عامًا ، واليوم هو يفتح عينيه على شاشة الكمبيوتر ، وغدًا يعرف العالم كله كيف كان شكله .. سأبدأ التشكيل فورًا .. لابد من لصق الطبقة الأولى من عضلات الوجه مهتديًا بحسابات الكمبيوتر .. لاحظ أننى لم اختر لون الجلد الأسود ، لكن الكمبيوتر استنتج من قياسات الجمجمة أن هذا الرأس لإفريقى .. »

هنا سألته السؤال الأهم فى كل هذا الفيض من المعلومات :

ـ « كل ما قلته جميل .. وما جدوى هذا كله ؟ »

* * *

٣ - إنه الأنثروبولوجى ..

قال د. (ولسلى) وهو يشعل غليونه للمرة الألف منذ دخلت المعمل :

- « لعلك تعرف أننى من المهتمين بعلم (الأنثروبولوجى) .. يعود هذا إلى ظروف ... إحم .. نشأتى .. التى جعلتنى لا أعرف من أنا حقًا .. وقد انهمكت فترة طويلة فى دراسة هذا العلم .. وقد قادنى هذا إلى الاهتمام بدراسة خواص الجماجم المميزة للقبائل هنا .. لقد شهدت (كينيا) حروبًا عديدة فى تاريخها ، ويمكن القول إن الثرى الذى نمشى عليه هو جماجم آدمية .. يساعدنى علم (الأنثروبولوجى) فى فهم من جاء من أين ولماذا »

سألته فى حيرة :

- « على قدر فهمى ما تتكلم عنه هو علم

(الأنثروبومترى) .. علم قياسات الأجناس المختلفة .. وليس (الأنثروبولوجى) »

ابتسم كمن يسمع طفلاً يهذى ، وارتجفت لحية الإمبراطور (غليوم) حماسة وهو يقول :

- « علم (الأنثروبولوجى) هو علم دراسة الإنسان سلوكيًا واجتماعيًا وبيولوجيًا .. وينقسم إلى قسمين كبيرين : الأنثروبولوجى المادى Physical المعنى بصفات البشر التشريحية ، الأنثروبولوجى الاجتماعى Sociobehavioral المعنى بدراسة المجتمعات والعادات ، والذى اشتهرت عالمته (مارجريت ميد) إلى حد أن رجل الشارع العادى يعرفها جيدًا .. »

« أنا معنى بالجزء الأول .. وكما ترى فـ (الأنثروبومترى) ليس علمًا منفصلاً عن الأنثروبولوجى .. بل هو جزء من دقائقه ..

« كانت الثورة الكبرى فى علم الأنثروبولوجى المادى هى ما قام به الزوجان (ليكى) من اكتشافات فى شرق

إفريقيا فى الستينات .. لقد عثرا على عظام امرأة عاشت من ملايين السنين ، هى التى اصطلح على تسميتها (لوسى) .. من هنا عرفنا أن الإنسان القديم عاش فى شرق إفريقيا منذ ثلاثة ملايين عاما ..

« قبل هذا جاءت أبحاث عالم تشيكى عظيم هو (هردليكا) قضى حياته يقيس أجساد الناس ، والسلالات المختلفة فى المكسيك وآسيا وإفريقيا .. وله كتاب عظيم كتبه عام 1920 اسمه (الأنثروبومترى) »

قلت له :

- « أى أنك تستخدم الطب لدراسة الأنثروبولوجى .. الطب وسيلة لا غاية بالنسبة لك .. »

- « ليس لدى الكثير من العمل هنا كما تعلم .. »

وابتسم بخبث وأردف :

- « هؤلاء الأطباء لايقتلون العدد الكافى من المرضى .. لابد لى من أن أسلى نفسى ! »

وراح يحاول إشعال غليونه .. ألاحظ أننى لم أر قط فى حياتى إنسانًا يدخن الغليون .. كلهم يضيعون عمرهم فى تنظيف الغليون وتسليكه وتفريغه وحشوه ومحاولات إشعاله ، أى مقدار الجهد الذى تحتاج إليه الأم كى تربى عشرة أطفال مزعجين .. إن الحياة لاتستحق كل هذا التعقيد ..

نهضت ورحت أتفقد الجماجم المتراصة متجاورة .. كانت كما قلت فى مراحل متباينة من التكوين .. بعضها مازال عظمًا وبعضها اكتسى بالصلصال ، وبعضها اكتسى بالجص ، واصطبغ بالألوان ، فصار كأنه رءوس حية مقطوعة ترمقنا فى كراهية ..

سألته :

- « من أين تأتى بهذه الجماجم ؟ »

- « إن لى وسائلى .. وهى مهمة ليست هينة فى بلد يقدس الموتى مثل (كينيا) .. »

وأمسك بجمجمة تضحك ضحكة الموت الشهيرة ،



وأشار إلى الفك السفلى للجمجمة حيث كان قد ثبت الأسنان النخرة إلى موضعها بالسلك ..

وكان من الواضح أن العظام تم لحامها بلاصق ما .. لابد أن الجمجمة كانت مكونة من سبع قطع قبل أن يقوم هو بإعادتها إلى شكلها التشريحى ..

ـ « هل تعرف عمر هذه مثلاً ؟ لابد أنه يدنو من المائتى عام .. »

وأشار إلى الفك السفلى للجمجمة حيث كان قد ثبت الأسنان النخرة إلى موضعها بالسلك ، وقال :

ـ « هاتان السنان الناقصتان من القواطع الأمامية للفك السفلى .. هذه هى بطاقة هذا الميت .. إنه محارب من (الماساى) .. كانت من عاداتهم انتزاع هاتان السنين والسبب هو ما قلته لك .. بطاقة شخصية .. عندما يجد محارب الماساى جمجمة كهذه يعرف على الفور أنها لـ (ماساى) مثله ويعاملها باحترام .. إنه يرفعها من الثرى ، ويتفل على بعض العشب ويكوره ، ويحشو محجرى العينين .. إن العشب مقدس عندهم ، وهم لايجدون تكريمًا للموتى أفضل من هذا .. »

ثم تذكر شيئًا فأضاف :

ـ « بالمناسبة .. لا يوجد دفن عند الماساى لأنهم يعتقدون أن الجثث تدنس الأرض .. إنهم يتركون الجثة معلقة لتفرغ منها الطيور الجارحة .. ولهذا يوجد كنز من الجماجم هنا ، لكن المشكلة كيف يتركك أحفادهم تأخذها ؟! »

أشرت إلى صف من الجماجم بحالة جيدة نسبيًا وسألته :

ـ « وهذه الجماجم ؟ لا تبدو بهذا السوء » .

قال وهو يحك لحيته :

ـ « لقد جلبها الرجال من قرية قريبة من هنا .. قرية من قرى (الكيكويو) اسمها (ماندونجوا) .. وإننى لراغب أشد الرغبة فى استعادة تكوين هذه المجموعة بالذات .. من الجلى لى أنها لرجال بيض .. فى الغالب بعض الإنجليز .. وهذا هو السبب الذى جعلهم يتخلون عنها بسهولة .. »

ـ « لابد أن هذا سيكون ممتعًا .. »

ونهضت متمنيًا له يومًا طيبًا .. وغادرت المعمل مداريًا بسمة على شفتى ..

حقًا يسهل على من لا يعرف طبيعة العلم أن يتهمه بالجنون .. لكن هؤلاء المخابيل هم من يصنع العلم .. من يموت للبرهنة على فكرة ما ، وبعدها تتلخص حياتهم فى سطر من كتاب ، تقرؤه وأنت على الأريكة تعبث فى أصابع قدميك ، وتقول : يا لهم من رجال عظام حقًا !

وكنت أعرف أننى سأعود لمعمله مرارًا ، فالرجل ظريف ، واهتماماته مثيرة من دون شك ..

* * *

فى أثناء مرورى مع غريب الأطوار الآخر الفرنسى (شارل سينوريه) فى قسم طب المناطق الحارة ، سألنى عما إذا كانت الحالات المرضية تختلف كثيرًا عنها فى (الكاميرون) ..

قلت له :

- « ليس كثيرًا .. لكنها هنا أسوأ وأكثر عددًا .. »

- « لأننا أقرب إلى قلب إفريقيا .. وكلما دنونا أكثر ازدادت (الأفرقة) وصار طب المناطق الحارة هو الفرع الطبى الأهم والأوحد .. »

ثم عاد يسألنى :

- « هل أحببت الأطباء هنا ؟ »

- « لم أتعرف أحدًا بعمق ، ربما باستثناء البروفسور (ويلسلى) .. »

ضحك كثيرًا حين ذكرت الاسم ، وقال :

- « جميل .. جميل .. لكن خذ الحذر من هذا المشعوذ .. إنه على شىء من الخبال .. ربما بسبب كثرة العلم .. »

ثم أضاف :

- « إن ظروف نشأته الغريبة ليست بالضبط الطريقة

المثلى كى تكون إنسانًا صحيح العقل .. وعلى كل حال لعلى أتكلم من منطلق الكراهية المتبادلة بين الإنجليز والفرنسيين ، التى تحولت إلى روح تنافس .. »

- « هل هذا تحذير ؟ »

- « لقد كنت واضحًا حين قلت إننى أحذرك .. لم أغلف كلماتى بغلاف براق لامع .. »

وعلى كل حال لم أكن أنا رائق المزاج لهذه الأمور .. لكنى قررت أن أعود لزيارة (ويلسلى) فى معمله العجيب .. وهو بالمناسبة موجود جوار مشرحة الوحدة ، فى ذلك الجو المنعزل الذى يسمح بهذه الأمور ، والذى يجعل الباحث يعتقد أنه فى عالم خاص صنعه بنفسه .. جو مماثل هو الذى يعيش فيه (جيديون) فى (سافارى - 4) وإن كان مساعده الكورى يخفف عنه الوحدة قليلاً ..

وبالفعل عدت إلى هناك فى المساء بعدما انتهيت من عملى ، لكنه يوصد الباب من الداخل .. قرعت

أكثر من مرة دون رد .. وفى النهاية جاء صوته الغليظ :

-« من هذا المزعج ؟ »

وتذكرت والد أحد أصدقائى فى مصر ، قرعت بابه فى العاشرة مساءً ، فجاء صوته يصيح من الداخل : من الحيوان الذى يأتى فى ساعة كهذه ؟ وهكذا رحلت قبل أن يفتح الباب ، لأن من العسير أن أقول أنا !

كدت انصرف فى هذه المرة أيضًا ، لولا أن انفتح الباب وظهر وجه الرجل العملاق ، وهتف :

- « أنت ؟ معذرة .. يبدو أننى لن أتخلى عن عادة السباب من وراء الأبواب ، وفى الهاتف ، قبل أن أعرف من أكلمه ! للأسف لن أستطيع أن أدعوك للدخول لأننى مشغول .. »

وكان تعاملى مع الأجانب قد عودنى على طريقتهم العملية .. هم لا يمارسون كرم الضيافة العربى بأى شكل ومن الطبيعى جدًا أن يطردك صاحب البيت لأنه مشغول ..

قلت له فى تهذيب وأنا أستدير :

- « معذرة .. لكن دعوتك لى كانت مفتوحة ، وتجرأت على الاعتقاد بأننى أستطيع المجىء من دون موعد .. »

قال من جديد فى لطف اعترف به :

- « المسألة هى أن تشكيل الجماجم الجديدة استغرقنى للغاية ، ولا أعتقد أننى ساكون مضيفًا كريمًا .. »

- « أفهم هذا يا سيدى .. »

* * *

مر يومان لم أر فيهما الرجل ، وانشغلت تمامًا بالعالم الجديد فى (كينيا) .. وقد اكتشفت هنا (بودرجا) جديدًا شابًا لامع العينين والأسنان اسمه (تارو) ، ومن يعرفون (بودرجا) الأصلى يعرفون أن شخصًا كهذا يساوى ثقله ذهبًا لأنه همزة الوصل الوحيدة التى تتيح لنا أن نفهم قومه .. كان يجيد الترجمة ، والمثير أن لغات القبائل هنا متباينة ، لكن (السواحلية) هى اللغة التى يتفاهم بها الجميع ، كما أن الفصحى هى لغة

العرب جميعًا مهما تباينت اللهجات المحلية .. لهذا يطلق المكتشفون على السواحلية اسم (لينجوا فرانكا) أى لغة التفاهم ..

والسواحلية لغة شائعة فى أكثر إفريقيا ، وحين تسمعها يخيل إليك أنك تسمع العربية من شخص لا يحسن النطق .. تدقق السمع أكثر من مرة حتى تكتشف أنها ليست العربية .. ولكنك تدرك أن هناك كلمات عربية كثيرة تم إقحام حروف الياء والألف فيها .. السواحل تصير (سواحيلى) .. والوزير يصير (وازيرى) .. وهكذا دواليك ..

علمت كذلك أن (الكيكويو) هم أكثر المجموعات العرقية هنا وأهمها .. ومشكلتهم هى أنهم يسببون الصداع للحكومة ، بميلهم إلى إحراق الغابات كى يزرعوا محاصيلهم مكانها .. وهو ما كاد يقضى على الثروة الطبيعية فى (كينيا) لولا أن تنبهت الحكومة لذلك ..

وفى (كينيا) يوجد عدد من الهنود لا بأس به أبدًا ،

وهم جميعًا من مخلفات الاستعمار البريطانى .. وأكثرهم أثرى وكدس المال مثل اليهود بالضبط ، لأنهم كانوا من أبرع التجار فيما مضى ..

كما أن العمانيين لهم هنا تاريخ طويل .. لكنى سأتحدث عن (كينيا) بالتفصيل حين يجىء الوقت المناسب ، لأنه ليس أسوأ من تجاهل المعلومة إلا إعطاءها فى غير موضعها ..

طبعًا كنت منهمكًا فى هذه الفترة بخلافاتى مع المدير ثقيل الظل ، الذى تحمل كل كلمة من كلماته تلميحًا مسمومًا ما .. هذا رجل يكره ألا يقول شيئًا مؤذيًا فى أى وقت وبنفس البرود والتهذيب ..

وقد لاحظت من دون شك أنه يلاحق (برنادت) .. لماذا صارت عيادة الأطفال أهم مكان فى (سافارى) فجأة ؟ ولما كانت الغريزة هى الغريزة فقد أحس تلقائيًا أننى منافسه الطبيعى ، وكذا شعرت أنا ، وربما لهذا لم تتلاق روحانا قط ..

وماذا عن (برنادت) ؟ فلتفعل ما يروق لها فقد سئمت هذا كله ..

الحياة أقصر من أن تضيع مع التهاويم الغامضة فى نفس أنثى ، لاتعرف ما تريده حقا .. إن لدى ما يشغلنى على كل حال ، وقد بدأت أدرس بجد .. ربما أن قلة المشاكل والأصدقاء ساعدتنى على ذلك ..

أما عن (ولسلى) فقد نسيت أمره تمامًا ، ولم أحاول أن أقرع بابه حتى لا أتهم بعدم التحضر .. وإن كنت فى أمس الحاجة إلى تسلية من نوع الجلوس معه وهو يعمل .. ربما تعلمت هذا الفن منه كذلك ، ويومًا ما أعود لمصر خبيرًا فى إعادة تركيب الجماجم .. كم من تطبيقات فى علمى الآثار والطب الشرعى يمكن أن تنبثق من فن كهذا ؟

نسيت أمر (ولسلى) لكنه لم ينسنى ..

* * *

وفى مساء يوم قرع باب غرفتى بالسكن ، وكنت لا أحسبه يعرفها ..

فتحت الباب لأجده ، ولأعرف على الفور أن هناك خطبًا ما ..

كانت عيناه متسعتين فى جنون ، والعرق يغمر وجهه وشعره أشعث تمامًا .. وقال لى :

ـ « أين أنت ؟ ثمة ما أريد أن تراه فى معملى .. »

* * *

٤ـ أنا !

قال (ويلسلى) وهو يجد السير فى الممر وأنا خلفه :

ـ « حقًا كنت أتوقع كارثة لكنى لم أعرف ما هى .. إنه ذلك الشعـ ... تعال من هنا !! ذلك الشعور الذى يدغدغ الشعر فى مؤخرة عنقك .. ذلك الافتتان الذى .. ولكنى صرت أخرف .. يبدو أن كلامى غير مترابط على الإطلاق .. كنت .. هل تفهمنى ؟ كنت أشعر أن هناك سببًا لحماسى غير المسبوق للعثور على .. أين مفاتيحى ؟ على هذه الجماجم برغم أنها لا تمثل أى كنز تاريخى .. إنها ليست جماجم (ماساى) .. ودعنى أؤكد لك أن .. هلم ادخل ! هناك جماجم أهم من سواها .. هناك نوع واحد من الجماجم المهمة فى هذا العالم ، هى جماجم (الماساى) .. »

ثم وقف على مدخل الباب وصاح :

ـ « م .. ا .. س .. ا .. ى ! تأمل الكلمة ! كم هى رهيبة ! كم هى رائعة ! إن لها سحر العواصف والأعاصير والنمور .. سحر الطبيعة المخيف الذى لا يمكن مواجهته لكنه يفتننا فى كل حين !! »

لاحظت أنه قد نسى تمامًا ما كان مذعورًا من اجله ، فعدت أسأله :

ـ « سيدى .. قلت إن هناك ما يجب أن أراه .. »

ـ « نعم .. نعم .. »

وكان هناك على المنضدة الرئيسية فى المعمل ، رأس مغطى بقماش ، يبدو أنه جمجمة كان يكسوها بالجص .. ومن الواضح أنه فرغ من تلوينها تمامًا ، لأن علب الألوان كانت متناثرة بجانبها ..

أزاح القماش بحركة درامية كأنما يزيحه عن نصب تذكارى ، وهتف :

ـ « هل تعرف هذا الرأس ؟ »

والرأس الذى كشف عنه الستار كان بالفعل مألوفًا إلى حد لا يصدق ..

كان رأس (ولسلى) دون غيره من الرعوس !

* * *

تأملت التمثال وأنا اشعر بتوتر غير عادى .. ما الذى يدفع هذا الرجل لعمل تمثال لرأسه ؟ هل جن بالفعل أم أنه مجنون من اللحظة الأولى ؟

كان قد ثبت شعرًا مستعارًا فى الأماكن الصحيحة .. السوالف المشعثة المتصلة بالشارب والحاجبان الكثان البريطانيان .. حتى الجرح غير الملتئم على الخد الأيمن .. وقد أسهم بهذا فى تحويل التمثال إلى شىء مخيف .. رأس (ولسلى) المقطوع على المنضدة أمامنا ، كما كانوا يجلبون الرعوس التى أطارتها المقصلة إلى مدام (توسو) كى تصنع تماثيل شمع تشبهها ، والسبب هو أن رجال الثورة الفرنسية كانوا يريدون عرض الرعوس فى القرى ، وما كانت الرعوس لتتحمل هذا

العناء .. كان هذا هو الثمن الذى دفعته مدام (توسو) كى لا يطير رأسها شخصيًا ، والمحزن هنا أنها كانت تصنع تماثيل لرعوس بعض صديقاتها ومعارفها ..

لماذا تذكرت هذه القصة الآن ؟ لأن رأس (ويلسلى) المقطوع على المنضدة لابد من أن يذكرك بهذا ..

ثمة اختلاف بسيط هنا هو أن (ولسلى) نفسه واقف أمامى يعرض على ما صنعه !

قلت له فى كياسة :

ـ « إنه متقن ! »

ـ « متقن ؟ إنه نسخة طبق الأصل .. لقد أصابنى الذهول حين رأيته ولم أعد واثقًا من أن رأسى على كتفى فعلاً .. حتى إننى كنت أتحسسه من آن لآخر ! »

قلت وأنا أتهيأ للانصراف :

ـ « أنت مثال ممتاز حقًا .. »

صاح فى جنون وقد أدرك أننى لم أهتز للأمر :

- « أنت لا تفهم .. أنا لم أتعمد عمل تمثال لى .. لقد قمت بتركيب ملامح الجمجمة فى صبر كالعادة .. وهذه هى النتيجة التى وصلت إليها ! »

★ ★ ★

ابتلعت ريقى .. لا يجب أن أثير غضبه خاصة فى هذه الساعة المتأخرة حيث لن يسمع أحد صوت تهشيم رأسى ..

قلت له فى لطف :

- « هذه صدفة يا بروفسور .. والشعر المستعار يصنع المعجزات .. لو أننى وضعته على رأسى لصرت أشبهك بلا أدنى شك .. كل رسام يعرف أن العوينات واللحية والشارب تختصر الجهد تمامًا ،وتجعل الوجوه تتشابه .. »

صاح فى مزيد من الجنون :

- « والرأس الكبير والملامح الفظة والجبهة العريضة .. بل والأنف الحاد ؟ إننى لشديد القبح .. وملامحى لا تتكرر بسهولة .. لقد وضعت الشعر المستعار بعد ما شعرت بريبة بالغة .. فهالنى ما رأيت »

- « والندبة ؟ أنت وضعتها عمدًا لتزيد الشبه .. »

- « بل الجمجمة بها ندبة فى هذا الموضع بالذات .. ندبة لا يمكن إلا أن يقابلها هذا الجرح على الجلد !! »

ثم جرنى من يدى جرًا إلى شاشة الحاسب الآلى ، وحرك الفأرة لتظهر الشاشة التى تراصت فيها الوجوه المحتملة ، وقال :

- « هل ترى ؟ هذا هو الوجه المفترض أن يكون من دون شعر .. وقد أجرى الحاسب الآلى التباديل والتوافيق المعتادة .. فوجئت ضمن الصور بوجهى يظهر لى .. وهذا هو ما جعلنى أضيف هذه الإضافة على النموذج الحقيقى بعد الفراغ من تكون الجمجمة ! لاحظ أن الكمبيوتر هو الذى رسم الندبة بنفسه فلم تكن هذه من إضافاتى .. »

ابتلعت ريقى من جديد ، وقلت فى رزانة :

- « بروفسور .. هل تريد القول إن هناك من يشبهك إلى هذا الحد ؟ »

- « بل هو أنا ! لايمكن أن توجد هذه القسمات الغليظة صدفة .. »

- « وأنت لاتجد هذا عجيبًا ؟ »

- « بل هو أعجب وأغرب ما رأيت فى حياتى .. لقد قضيت أسود ساعات حياتى ، ولو لم أجد من يرى هذا معى لجننت !! »

قلت فى سرى : لاتخف من هذا لأن المجنون لايجن .. ثم سألته بصوت عال :

- « ما احتمالات الخطأ ؟ »

- « لا احتمالات للخطأ .. أنت لاتعرف مدى براعتى فى هذا الفن .. منذ عامين لم تعد لى أخطاء على الإطلاق .. تأكد من أن ما تراه هو الوجه الحقيقى لصاحب الجمجمة .. »

عدت أفكر ثم خطرت لى فكرة فسألته :

- « لا أريد أن أكون غليظًا .. لكن هل عثر أحد على جثة أبيك بعد .. بعد المذبحة ؟ »

نظر لى وبدت عليه الدهشة لأنه لم يتوقع أننى أعرف ، ثم قال وهو يحك لحيته :

- « طبعًا .. وهو الآن مدفون فى (إنجلترا) فى (ديفون) إلى جوار أمى .. كان أبى معروفًا لرجال الإرساليات ولم يجدوا عسرًا فى تعرف جثته .. لاتتوقع أن هذه جمجمته لأنه كان وسيمًا قسيمًا .. لقد ورثت هذه السمات من أمى ، وهى لم تكن جميلة ، لكنها كانت امرأة باسلة متدينة .. »

بدا لى الأمر بلاجواب .. أو على الأقل له جواب واحد : حتى (هومير) يحنى رأسه .. لابد لكل جواد من كبوة ولكل عالم من هفوة .. للمرة الأولى أخطأ (ولسلى) البارع ..

قلت له فى كياسة :

- « لنفرض مجرد الفرض أنك أخطأت .. أو أن .. »

- « أنا لا أخطئ يا بنى .. إن هذا العمل شاق ويتطلب الكثير من الحسابات .. »

وأمسك بجمجمة عارية موضوعة هناك على المنضدة ، وراح يمرر إصبعه على تقاطيعها ويشرح لى كيف

يبدأ استنتاج الجنس والسن منها ، ثم بعد هذا يبدأ فى حسابات طبقات العضلات المغطية لهذا التكوين .. وكيف يقوم بتصويرها ، ويجرى قياساته ويلقنها للحاسب الآلى .. بعد هذا يبدأ برنامج خاص ـ قام هو بتطويره مع أحد المهندسين ـ فى وضع نموذج ثلاثى الأبعاد مغطى بالعضلات ، كالصور التى تراها فى أطلس التشريح ..

ثم تجىء عملية الكساء بالجلد ، واختيار لون مناسب للعينين والشعر .. وهذا دور يلعب فيه الخيال مع الحدس دورًا لا بأس به .. إن الجماجم القوزاقية يناسبها طبعًا اللون الأبيض للجلد مع الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين .. الجماجم الزنجية يناسبها لون البشرة الداكن مع الشعر المجعد والعينين السوداوين .. الخ .. الخلاصة أن هناك قدرًا كبيرًا من الإحساس الفنى هنا ..

أشهد أننى تعلمت الكثير من الرجل فى الساعتين التاليتين ، لكنى لم أتشرب هذا الفن بعد ، ولا أحسب أننى سأتشربه بسهولة ..

لكنى على الأقل بدأت أرجح أنه لم يخطئ ..

رجل بهذه الدقة يصعب أن يخطئ ..

* * *

أعد لى بعض القهوة وصبها فى كوبين من الورق .. وبرغم أن الوقت توغل فى الليل فإننى لم أرفض الفكرة وقد شممت الرائحة العطرة للبن تفوح من الإبريق ..

جلسنا وسط كل هذه الجماجم نفكر .. وكنت أنا قد توصلت إلى أربعة احتمالات منطقية :

ـ « الاحتمال الأول : أنت أخطأت لمرة واحدة فى حياتك .. »

ـ « وأنا أقول إننى لم أخطئ .. ولن أسمح بتكرار هذا الاتهام كل ثلاث دقائق .. »

ـ « الاحتمال الثانى : أنت أعدت تشكيل الجمجمة ، وملامح وجهك فى عقلك الباطن تؤثر لا شعوريًا على دقة ما تقوم به .. »

ـ « هذا هراء .. وإلا لارتكبت الخطأ ذاته أكثر من مرة طوال سنى عملى .. »

ـ « الاحتمال الثالث : لديك أقارب فى (كينيا) وأنت لا تعرف عنهم شيئًا .. »

ـ « مستحيل .. أنا آخر واحد على قيد الحياة من أسرتى .. ولست مقطوع النسب إلى هذا الحد .. لقد زرت (إنجلترا) وقابلت أقاربى فى (ديفون) .. كان أبى هو الوحيد الذى جاء إلى (كينيا) ، وقد اعتبره أكثر أفراد أسرتى مخبولاً ، لأن مستقبلاً باهرًا كان ينتظره فى المحاماة فى وطنه .. لكنه آثر أن يأتى إلى هنا مع زوجته الشابة .. هذا معناه أنه لا أحد من أقاربى هنا .. »

ـ « الاحتمال الرابع : هذه صدفة فريدة من نوعها .. فرصة تقل عن الواحد فى المليون أن يكون هناك فى (كينيا) من كان يشبهك إلى هذا الحد .. »

ـ « أنا لم أر فى حياتى من يحمل هذه الملامح العجيبة .. ولا أتصور أن يوجد رجلان فى (كينيا)

لهما الشكل ذاته .. يبدو هذا قريبًا مما تصوره الفلاسفة الملحدون فى القرن الماضى : أن انفجارًا فى مطبعة يمكن ـ بالصدفة ـ أن يجعل الحروف تتجمع فى شكل قصيدة معروفة لـ (شكسبير) .. هذا ببساطة كلام نظرى لا يرتكز على أساس »

ـ « الاحتمال الخامس : ثمة شىء ما غامض يجرى هنا .. »

ـ « هذا هو أقرب الاحتمالات إلى الدقة .. إن الأمر لا يصمد لأى تفسير منطقى بل هو يحتاج إلى تفسير خارق للطبيعة .. »

ورشف رشفة من القهوة وقال :

ـ « هل تعرف ما أفكر فيه ؟ إن لدى موعدًا فى (سمارة) .. »

كان تعبير (موعد فى سمارة) يشير لقصة (موم) الشهيرة فى الأدب الإنجليزى .. الرجل الذى رأى الموت فى (بغداد) ينظر له .. ففر منه إلى (سمارة) .. ويتضح

أن الموت كان ينظر له بدافع الدهشة لا أكثر ، لأنه كان على موعد معه هذا المساء بالذات فى (سمارة) ! ومعنى تعبير (موعد فى سمارة) المجازى هو دنو الموت ..

يعتقد (ولسلى) أنه تلقى رسالة واضحة من الموت ، يقول له إنه الشخص التالى الذى ينتظره موعد فى (سمارة) .. والرسالة لا تحتاج إلى عبقرية أو شفافية لفهمها .. تحتاج فقط إلى عقل منفتح بلا تحيزات مسبقة .. لقد وصلت الرسالة والأمر متروك لـ (ولسلى) كى يصدق أو لا يصدق .. والأمر سيان على كل حال ..

- « سمعت .. » - قال لى - « إن من ينتظرهم الموت يرون أنفسهم فى أوضاع مفزعة قبل الموعد بعدة أيام .. يرون أنفسهم جثة على الأسفلت أو على منضدة التشريح .. ترى ماذا يقولون عن الرجل الذى يركب ملامح جمجمة ليجد أنها تحمل وجهه ؟ »

شعرت بقشعريرة برغم ثقتى من أن هذا هراء ، وقلت له مخففًا :

- « لا أحد سمع عن شىء كهذا .. الموت لا ينذر من جاء عليه الدور .. هذا معروف دينيًا وعلميًا .. »

- « أحيانًا يصدق كلام العامة .. »

- « كلام العامة قد يقنعك أن الأفيال تطير بآذانها ، أو أن السماء تمطر قططًا وكلابًا .. »

قال فى قنوط وهو يعبث فى لحيته الغريبة :

- « لكن لا بد من تفسير .. بحق السماء لا بد من تفسير .. »

والحقيقة هنا أننى أفهم مشاعره جيدًا .. المرء لا يشعر براحة تامة حين ينظر إلى الرأس المقطوع على المنضدة ، ليجد أن هذا رأسه ..

* * *

٥ ـ كيكويو ..

فرغت (برنادت) من التهام آخر قطعة من البطاطس المحمرة فى طبقها ، وقالت :

ـ «برغم كل شىء .. لا تنكر أن طعامهم هنا أفضل .. »

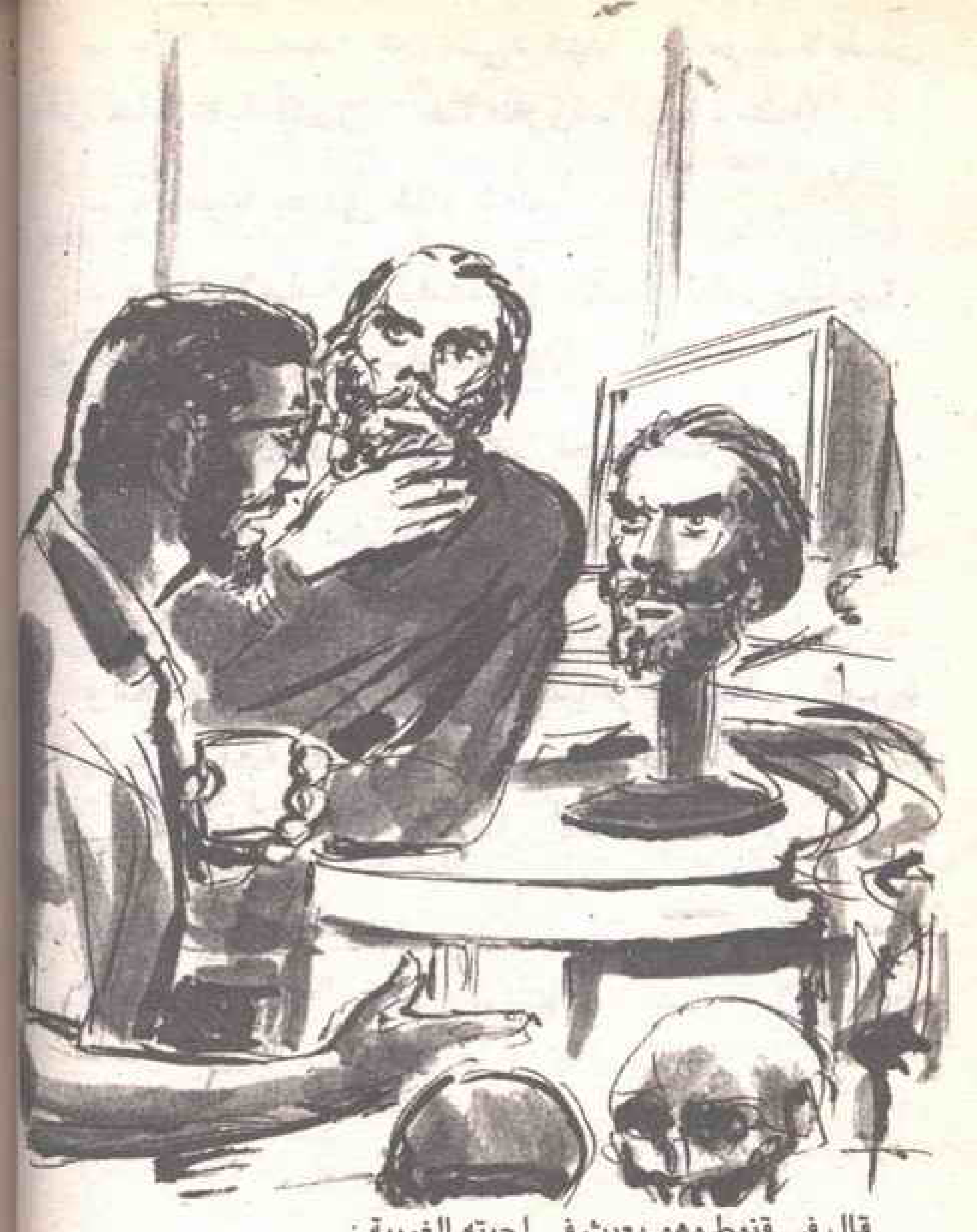
قلت فى لا مبالاة :

ـ « إن إمكانياتهم هائلة هنا هؤلاء القوم .. حتى أن البطاطس لم تتحول إلى عجين زنخ ! »

وخطر لى أن الأمر غريب حقًا ، لكنى لا أراها هذه الأيام إلا وقد امتلأ فمها بالطعام كأفراس النهر .. والسبب طبعًا هو أن ساعة الغداء هى الوقت القليل المتاح لنا ..

ابتسمت وقالت لى :

ـ « ملاحظاتك ذكية فعلاً .. والآن علام استقررت بصدد صديقك هذا ؟ »



قال فى قنوط وهو يعبث فى لحيته الغريبة :

ـ « لكن لابد من تفسير .. بحق السماء لابد من تفسير .. » ..

ـ « لاشىء .. ليس مطلوبًا منى أن أعمل شيئًا .
إن هذه مشكلته ، وليس من واجب أحد ـ حتى هو ـ
أن يحلها .. يمكن للأسرار الكونية أن تنتظر .. »

ـ « ليس هذا هو (علاء) الفضولى الذى أعرفه .. »

ـ « لم أكن قط فضوليًا ، لكن المدير (بارتلييه)
كان يرغمنى على أن أكون كذلك .. »

قالت مفكرة ، وقد أبطأت حركة مضغها كأنما
تلوك الفكرة قبل أن تقولها :

ـ « تريد رأيى ؟ هذا الرجل ليس على ما يرام
واقترح أن تتركه وشأنه .. أعتقد وأراهن على أنه لفق
هذا الوجه الذى ليس وجه الجمجمة على الإطلاق .
لاحظ أنه الوحيد الذى يعرف ما يفعله حقًا .. هل
تذكر تلك المرة التى انتشر فيها الإشعاع الذرى في
(سافارى ـ 4) ، وكان الوحيد الذى لجأنا له والذى
يفهم هذه الأمور ، هو الجانى نفسه ؟ وكنا نسمع أكاذيبه
فى تصديق مطلق تاركين له كل شىء لأنه الخبير ..

ـ « لو قال لك هذا الرجل إن الجمجمة جمجمة
(نيرون) أو (ميكى ماوس) فكيف تثبت العكس ؟ »

ـ « ومصلحته فى هذا ؟ لا بد من مصلحة له فى
هذا .. »

ـ « وهل يمكن فهم منطق تفكير مجنون ؟ ربما
هو نوع فريد من عقاب النفس .. لاحظ أن بعض
من يفقدون الأبوين فى سن مبكرة ، يشعرون بعقدة
الذنب ، وبأنهم بشكل ما استحقوا ما حدث لهم ..
بعضهم يصاب بالاكتئاب ، وبعضهم يتسلى بتمزيق
جسده هو بالموسى .. »

ـ « وبعضهم يصنع رءوسًا مقطوعة تشبه رأسه
هو بالذات ؟ »

ـ « أنت تفهمنى .. ولا تنس كل ما قاله (فرويد)
عن غريزة الموت التى تحركنا ، وتغرينا بالموت دائمًا
أو بتخيل أننا متنا .. لا بأس من تخيل أن الجمجمة
هى جمجمتك بالذات .. وعندها نجد موقفًا فلسفيًا
جميلاً .. أنا ميت .. إنهم يزعمون العكس لكننى أعرف

الحقيقة .. والدليل أن هذه الجمجمة جمجمتى أنا بالذات .. أنا ميت وقد استحققت هذا لأننى فقدت أبوى .. »

فكرت فيما قالت وبدا لى على شىء من المنطق .. لست مطلق الإيمان بـ (فرويد) وغريزة موته ، لكنى أعرف أن العالم فيه ما يكفيه من المخابيل .. لم أعد أندهش لأى شىء فى العالم ، لأن من يعش ثلاثة وثلاثين عامًا ـ لا أبا لك ـ يسأم !!

★ ★ ★

جاءنى الدكتور (جوتييه) نائب المدير ، وهو شاب مهذب .. ومن الملاحظ أن (سافارى) الأولى يديرها رجل وديع يحيط به الصقور من أمثال (باركر) ، بينما هنا المدير صقر مؤذ تحيط به الحمائم ..

سألنى عن عملى هنا وعما إذا كانت هناك أية مشاكل تضايقنى ، ثم قال لى :

ـ « لقد حان وقت بعض العمل الميدانى .. سيكون عليك أن تزور بعض قرى (الكيكويو) بدءًا من غد .. »

ـ « ومن الذى رشحنى لذلك ؟ »

ـ « د. (ستيجوود) المدير طبعًا .. يقول إن لك باعًا فى التعامل مع القبائل كما يقول ملفك .. هو راغب فى أن يراك تعمل .. طبعًا عملك الأساسى سيكون حصر حالات (الكالا آزار) .. لكن هذا لا يمنع من عمل مسح صحى شامل .. هناك تغيرات تحدث من وقت لآخر .. »

كنت أعرف أن هذا هو عملى الأساسى هنا .. (بسام) التونسى قضى أيام انتدابه إلى (كينيا) فى قرى (الكيكويو) ، ويبدو أنه لم ير العمران هنا لحظة واحدة .. و(الكالا آزار) أو المرض الأسود هو كارثة أخرى من الكوارث التى ابتليت بها القارة ، ويبدو أنه من العسير أن أعمل فى (كينيا) دون أن تكون لى مغامرات يجب سردها عن هذا المرض .. ذكرونى بأن أحكيها لكم فى القصة القادمة ..

ـ « ومن سيكون معى يا سيدى ؟ »

وتوقعت أن يقول (بودرجا) كالعادة .. لكنه قال :

- « سيكون معك المترجم (تارو) والسائق وممرضتان كينيتان مهمتهما أخذ العينات .. لا تخش شيئًا لأن الأهالى هنا يعرفون بقدومنا جيدًا .. »

طبعًا هذا أمر تكليف لا مجال لاستئنافه ، لكنه قدمه لى بصورة من يطلب معروفًا ، وقد سرنى هذا .. ولم يكلفه شيئًا ..

- «ليكن يا سيدى .. أنا جاهز فى أى وقت تريدون .. »

وفى المساء قابلت (برنادت) فأخبرتها أننى ذاهب فى مهمة ما .. لكن لا تقلقى .. لن أموت ولن أتأخر كثيرًا ..

- « ومن قال إننى قلقة ؟ »

- « خطر لى هذا .. لكنى - أكرر - لن أتعرض لخطر ما ! »

وفى الصباح ركبت السيارة مع الطاقم المختار إلى مجموعة قرى (الكيكويو) المحيط بالوحدة .. أى فى قطاع (بورو) بالذات ..

أول ملاحظة يمكنك أن تراها بوضوح ، هو ثراء الحياة البرية هنا .. السيارة تعلو فى طرق ملتوية بين المزارع والأشجار .. هذه هى الأرض البكر كما يتخيلها الشعراء بحق .. مساحات شاسعة من الأشجار ، وبالذات من شجرة واتل وشجيرات البن .. الشجرة الأولى يستخدم قشرها فى صناعة الأصباغ الحمراء ، والشجرة الثانية معروفة .. وهو من نباتات التصدير المهمة هنا ..

الآن نصل إلى قرية (الكيكويو) المنشودة ..

هؤلاء من أبسط القوم فى إفريقيا ، ولا يعرفون معنى الثياب إلا من مئزر من جلد يغطى العورة .. النساء يلبسن المثير جدًا من الحلى النحاسية (الخلاخيل) التى تمتد من القدم إلى أسفل الركبة .. والمتزوجات منهن يضعن نفس الحلى على الساعدين ..

ترى من حولك فى آذان النساء أقراطًا ثقيلة جدًا - أعتقد أن ثقل الواحد لن يقل عن وزن مكواة - لهذا يلففن شريطًا من خرز على الجبهة ، يتمسك طرفاه بالأذنين كى لا تتمزقا من فرط الثقل ..

أما شحمات الآذان ذاتها فمثقوبة لتسمح بمرور أسطوانة من الخشب قطرها يشبه قطر ساعدك ، لو كنت نحيلاً نوعًا .. وهم فى هذا يشبهون قبائل (بورنيو) فى (إندونيسيا) ، حتى لتتساءل عن قدرة الأذن الخرافية على تحمل كل هذا ..

الرجال مسالمون وإن كانت لهم سحنة مفزعة .. إنهم مدججون بالسلاح ، ويبردون أسنانهم الأمامية لتبدو كالأنياب .. ويبدو أن هذه من علامات الأناقة هنا .. وهذا أفضل عمومًا من أناقة النساء التى تتضمن وضع روث وبول الأبقار على الشعر .. إنهم مجتمع رعاة ، وما يبدو لنا قذرًا بالنسبة لهم عملى جدًا .. ليس من المطلوب من المرأة أن تكون نظيفة لتروق لزوجها .. المهم أن تروق للبقرة أولاً .. والبقرة يجب أن ترضى عن مربيتها وإلا قل لبنها ..

أكواخهم جميلة من ناحية المنظر لأنهم يجيدون جدل الأغصان ببراعة ، وإن كانت الرائحة كفيلة بقتلك إن لم تكن قد مت بعد كل هذا .. فهم يعيشون مع البهائم فى مكان واحد ..

بالطبع ذهبنا إلى كبير القرية ، وبالطبع جلسنا وقدموا لنا (الكاسافا) الكريهة التى يذكرك منظرها بمعجون الدهان ، ويذكرك طعمها بالبطاطا التى داست غوريللا حتى أحالتها إلى عجين ..

ثم إننا انطلقنا إلى أداء عملنا .. فحص الحالات .. أخذ عينات من الدم والنخاع .. الخ .. الخ .. لحسن الحظ لم يكن تعداد القرية كبيرًا ، وهكذا صار بوسعنا أن نزور قرية أخرى هذا اليوم .. صحيح أننا سنعود إلى (سافارى) ليلاً .. لكنى أعتقد أننا لن نعمل غدًا بالتأكيد .. لسنا فى حرب هنا ..

وعند الظهر فرغنا من العمل ، وقمنا بترقيم العينات وأخذ أسماء الحالات ، ثم انطلقت السيارة عبر نفس الطريق قاصدة قرية أخرى ..

سألت السائق وأنا أنظر إلى خارطة لا أفهم شيئًا منها :

ـ « ما هى القرية التالية قرب الطريق ؟ »

قال لى بلا مبالاة وهو يمضغ لفافة تبغه :

ـ « اسمها (ماندونجوا) يا دكتور .. لا تضيع وقتك مع الخارطة وثق بعقل محسوبك .. كل شيء هنا .. »

وضرب صدغه بسبابته مكررًا العبارة فى دهاء :

ـ « .. كل شيء هنا ! »

أما أنا فقد رحت أفكر ..

(ماندونجوا) ؟ أين سمعت هذا الاسم من قبل ؟

ثم تذكرت .. يا لها من مصادفة !

* * *

٦ ـ هناك ساحر دائمًا ..

حين دخلنا القرية طلبت من (تارو) الممرض أن يسأل عن الجماجم !

نظر لى فى حيرة كأنما لا يعرف متى أبدأ المزاح ومتى أكف عنه .. عدت أكرر الكلام :

ـ « سل هؤلاء القوم عن جماجم البيض .. »

قال لى فى غباء :

ـ « لا أدرى إن كنت تعنى ما تقول يا دكتور .. لكن هؤلاء القوم لن يجيبوا عن أسئلتك .. »

ـ « هل تريد القول إنه من الممنوع أن يكون هنا جماجم بيض ؟ »

ـ « لم يعد أحد يفخر بعدد من قتلهم من الإنجليز كما كنا فى الماضى .. (إنجلترا) الآن دولة صديقة .. »

كانت هذه هى القرية التى وجد فيها (ولسلى) تلك الجماجم التى تكلم عنها .. وهى جماجم بيضاء .. ربما استطعت أن أسدى له خدمة وأعرف شيئًا جديدًا عنها ..

هو بالطبع - (ويلسلى) - يعرف أكثر مما قال لى .. لكنه لم يخبرنى .. ربما لأننى لم أسأله ، وربما لأنه لا يريد أن أعرف ..

ولكن ما هى الطريقة المثلى لسؤال رجال قبيلة إفريقية عن المصدر الذى يأتون منه بجماجمهم ؟

* * *

الإجابة لم تكن بهذه الصعوبة ، وبالفعل كانت قريبة جدًا ..

لقد زرنا الزعيم لهذه القرية فى كوخه .. كان كعادة الأفارقة أكثر القوم بدانه - كأنه فرس النهر - وكانت له أكثر الأسنان بياضًا .. وهذه الأخيرة علامة على علو المكانة فى إفريقيا كلها ..

راحت محاورة رتيبة تدور بينه وبين (تارو) ، بينما

رحنا نحن نلتهم الـ .. الكاسافا ! ودرت بعينى فى كوخه فرأيت مجموعة من الجماجم معلقة على الجدران كأنها للزينة .. هذا هو !! دققت النظر أكثر فوجدت أن أكثر الجماجم مثقوب أو مهشم من قمة الجمجمة .. الجزء الذى يصر معربو علم التشريح على أنه (الجلجثة) !

دنوت من أذن (تاور) وهمست له :

- « هذه هى اللحظة المناسبة .. سله عن هذه الجماجم ولماذا يحتفظ بها هنا ؟ »

همس فى ضيق :

- « هذا طبيعى .. إن (كودايو) الكبير هو ساحر القبيلة كذلك .. ما أكثر الأسباب التى تدعو ساحرًا للاحتفاظ بجماجم ! »

- « لكننا لا نعرف ذلك .. سله من فضلك .. »

دارت محادثة رتيبة بالسواحلية بين الرجلين ، ورأيت عينى الزعيم تتجهان لى أكثر من مرة .. ثم هز رأسه فى فهم وقال ما ترجمه لى (تارو) كما يلى :

- « هذه جماجم نساء قتلهن الماساى .. كان الماساى فى الماضى يقتلون الرجال بالحراب ، وفى المساء يعقدون حفلاً ساهرًا يهشمون فيه رءوس نساء الأعداء بالهراوات .. لقد وجدنا هذه الجماجم خارج أسوار القرية ، ويبدو أن هذا حدث من زمن .. وقد احتفظت بالجماجم لأنها تجلب الحظ ! »

اقشعر جلدى .. نساء ؟ هراوات ؟ لم يكن الماساى يمزحون ، وقد جلبوا من المتاعب للمستعمر البريطانى ما يشبه ما جلبه (الزولو) فى الجنوب .. سألت (تاور) :

- « سله هل وجد جماجم بريطانيين ؟ »

قال الرجل بعد ما نقل إليه الحديث مترجمًا :

- « كان هناك الكثير .. وقد حصل عليها كلها طبيب بريطانى اسمه الميجور (آرثر) يعمل عندكم .. نحن (الكيكويو) نجلب له بعض الجماجم لأنه يدفع ثمنها جيدًا .. والمال صار مهمًا للجميع فى هذا العالم .. »

تبادلت نظرة غبية مع (تارو) .. طبيب وميجور ؟ و(آرثر) أيضًا ؟ يبدو هذا عجيبًا بعض الشىء .. هؤلاء القوم مصابون بخلط غريب فى الأسماء والأشخاص ..

قلت على لسان مترجمى :

- « هو طبيب .. طبيب يدعى (جون ويلسلى) .. وليست له علاقة بالعسكرية .. »

قال (كودايو) الكبير على لسان المترجم :

- « نعم .. نعم .. ليس اسمه كذلك لكن شيوخنا وجدوا أنه يذكرهم بالقائد البريطانى الذى كان حاكمًا عسكريًا لـ (بورو) من مائة عام ، وأطلقوا عليه اسم الميجور (آرثر) .. له نفس الوجه المخيف الضخم ونفس الشعر الأشعث والسالفين الكثين .. هكذا قالوا ، لكن أحدنا لم ير هذا الميجور .. »

- « لديكم شيوخ كانوا أحياء من مائة عام ؟ »

ضحك فاهتز بطنه المكتنز كأنما هو طبق من الجيلى فى أرجوحة ، وقال بعد الترجمة :

ـ « لدينا ثلاثة رأوا موسم حصاد الذرة مائة وعشرين مرة !! »

الآن صارت القصة واضحة تمامًا .. لم تعد هناك ألغاز ..

لقد اعتدت علامات الاستفهام حتى لم أعد أجد صعوبة فى العثور عليها ، فإن لم أجدها أبعثرها بنفسى ..

لقد مات الميجور من مائة عام ـ غالبًا فى قتال مع (الماساى) الشرسين ـ وطبعًا فقد رأسه المقطوع فى الدغل .. بعد أعوام جاء من يحمل نفس الوجه المميز إلى (سافارى) ، وهو طبيب اسمه (جون ويلسلى) يهوى تركيب الجماجم .. بالصدفة قابل الأهالى المسنون الرجل وعرفوا أنه يشبه الميجور .. بالصدفة أيضًا وجدوا الجمجمة وأعطوه إياه .. قام هو بتجميعها ليجد مفاجأة عمره ..

بالصدفة .. بالصدفة ! صدف كثيرة جدًا .. لكن هذا هو المنطق الوحيد للقصة ، ولا أراها على أى ضوء آخر ..

ثمة احتمال آخر أن يكون الميجور هو أبو البروفسور الحقيقى ، على طريقة الأفلام العربية الميلودرامية القديمة .. وما فعله البروفسور هو أنه قام بتركيب جمجمة أبيه ..

لكن عمر البروفسور لا يتجاوز الخمسين ، فمتى أنجبه الميجور إذا كان قد عاش هنا من مائة عام ؟

أعتقد أن الاحتمال الأخير مرفوض .. وهكذا يبقى الاحتمال الأول برغم اعتماده المشين على قانون الصدفة ..

* * *

ـ « أنا لم أر فى حياتى من يحمل هذه الملامح العجيبة .. ولا أتصور أن يوجد رجلان فى (كينيا) لهما الشكل ذاته .. يبدو هذا قريبًا مما تصوره الفلاسفة الملحدون فى القرن الماضى : أن انفجارًا فى مطبعة يمكن ـ بالصدفة ـ أن يجعل الحروف تتجمع فى شكل قصيدة معروفة لـ (شكسبير) .. هذا ببساطة كلام نظرى لا يرتكز على أساس »

* * *

هكذا قال البروفسور ، وأجد أننى أؤيده من كل قلبى .. لكن لا يوجد حل آخر .. بالفعل كان هناك رجلان فى (كينيا) لهما نفس الشكل الغريب ، وشاءت الأقدار أن يقوم أحدهما بتركيب جمجمة الآخر ..

شكرت للزعيم حسن ضيافته ونهضنا لنمارس عملنا ، لكن قبل أن ننصرف قال لمترجمى :

ـ « قل له إن الأرواح تلعب ألعابًا غريبة .. ومن المقبول أن تحل فى جسد آخر بعد أجيال .. إن الميجور (آرثر) لم يستكمل عمله لهذا حلت روحه فى طبيبكم هذا ، وجاء إلى البلاد حاملاً الوجه ذاته كى يستكمل ما بدأه .. »

ثم أشار لنفسه وقال جادًا غير هازل :

ـ « أنا مثلاً كنت خنزيرًا فيما مضى .. ربما منذ مائتى موسم حصاد .. وقد عدت لأكمل ما بدأته .. أحيانًا أرغب فى أن أستحم فى الطين .. أو آكل الفضلات حتى أمتلئ ! »

كنت أنفجر ضحكًا .. لكنى تماسكت حتى لا يطير هؤلاء القوم أعناقنا .. اندمجت فى نوبة سعال كى أبرر اهتزاز لحيتى والدموع فى عينى .. الغريب أنه اختار بالفعل أنسب حيوان مناسب لمنظره .. ولو قال إنه كان غزالاً أو بجعة لشعرت ببعض الدهشة ..

من جديد شكرته وواصلنا المهمة الشاقة ..

وفى المساء كنا عائدين إلى (سافارى) ..

وكان ذهنى عامرًا بالأسئلة ..

* * *

٧ ـ هذا هو الفصل السابع ..

لحسن حظى كان اليوم التالى إجازة لى .. وقد توقعت هذا لأن المدير بارد الأعصاب لكنه ليس سفلحًا ..

قضيت نصف اليوم فى الفراش أنعم بحالة الفراغ التى أنا فيها .. والحقيقة هى أن الإجازات عملة نادرة فى وحدات (سافارى) .. أنت لا تنالها إلا وأنت موشك على الموت ..

عند الظهر كتبت لأمى خطابًا ، أشرح فيه لماذا تغير عنوانى .. أعرف أن مراسلاتهم إلى (سافارى ـ 4) ستحول لى بكل دقة ، لكن لا بد أن يعرفوا أننى هنا فى (كينيا) .. وعلى كل حال أمى لا تعرف الفارق بين (كينيا) و(الكاميرون) : كلها بلاد قصية يملؤها بشر سود البشرة ، وتعمها أمراض غامضة لا علاج لها ، وتدخل فيها الفهود من نوافذ غرف النوم ، لتمزق وريد عنقك وتجرك جرًا إلى الدغل القريب .. دعك

طبعًا من الطبيبات الشقراوات المائعات اللواتى ينتزعنك انتزاعًا من بنات خالتك ..

بعد هذا ارتديت ثيابى وتوجهت إلى الكافتيريا لأنعم بغذاء جيد .. ولم تكن (برنادت) هناك على كل حال .. اطمئنى يا أمى ..

الآن ـ ببطن ملىء ـ أتجه إلى معمل (ويلسلى) جوار المشرحة كى أخبره بآخر ما بلغ علمى ..

طرقت الباب حتى كل متنى ـ كما يقول اللغويون ـ لكن الرجل لم يرد .. وعلى كل حال واصلت الطرق لأنه صار سيئ التوصيل هذه الأيام وكل استجاباته بطيئة ..

فى النهاية جاء صوته الغليظ من الداخل :

ـ « ارحل ! »

قلت بكثير من الكياسة وأنا أنظر حولى ، كى لا يتهمنى أحدهم بالسماجة :

- « بروفسور .. هذا أنا .. (علاء عبد العظيم) .. »

ببطء كما توقعت انفتح الباب وبرز وجهه .. كان بشوشًا كعادته وإن كان في أسوأ حال ممكن .. شعره مشعث وعيناه منتفختان ، فذكرني بعلماء قصص الرعب المجانين ..

سمح لي بالدخول فدخلت .. لم يكن شيء قد تغير في المعمل فيما عدا جمجمة أخرى بدأ في تغطيتها بشرائح الصلصال .. وكان (رأسه) المقطوع في مكانه على المنضدة كما هو ، وإن وضع على قمة رأسه قبعة صغيرة (كاسكيت) .. يبدو أنه خاص بـ (ويلسلي) نفسه وقد أراد أن يجربه هناك على سبيل الدعابة .. الحقيقة هي أن هذا أضفى على الرأس تعبيرًا مفزعًا يوشك أن يكون واقعيًا تمامًا ..

لاحظ نظرتي فقال :

- « لا شيء .. مجرد حامل قبعات مبتكر ! »

جلست وبكلمات بطيئة منتقاة حكيت له قصة زعيم

(الكيكويو) والميجور (آرثر) واستنتاجاتي الخاصة بهذا الصدد .. وكلما تقدمت في القصة كانت عيناه تضيقان كأنما يستمتع بما يسمعه ..

في النهاية قال لي والابتسامة لا تبرح شفتيه :

- « هل تتصور أن الصدفة تلعب كل هذا الدور ؟ »

- « لا أتصور .. لكنه التفسير الوحيد .. »

قال وهو يصب لنفسه بعض القهوة من براد هناك :

- « أنا بالطبع أعرف قصة هذا الميجور ، وأعرف أن شيوخ القبائل هنا يرون شبهًا كبيرًا بيننا .. لكني محصت هذا الاحتمال جيدًا ، وأرى أنه مستحيل .. أولاً : لأن الميجور لا يشبهني إلى هذا الحد .. هؤلاء البدائيون يخضعون للإيحاء ولما يبقى في الذاكرة .. وهل تثق بذاكرة مضى عليها مائة عام ؟؟ إنهم لا يعرفون ما يعتقدونه حقًا ..

« أنا بحثت حتى وجدت صورة عتيقة لهذا الميجور أرسلها لي رفاقي من (إنجلترا) .. فعلتها من زمن

لمجرد الفضول ، وقد وجدت أن الصورة لا تشبهنى كثيرًا .. فقط كان لديه شارب كث وسلفان سميكان .. هذا كاف بالنسبة لهم كى يجدوا أن الرجلين متشابهان .. ولو رأى هؤلاء القوم غدًا (آل باتشينو) لحسبوه أنت وقد عدت تستكمل عملك .. يخيل لى أحيانًا أن الفراسة والقدرة على تمييز الملامح صفتان تهبهما الحضارة والثقافة ولا يولد المرء بهما ..

« ثانيًا : لقد عايشوا الميجور من مائة عام ، بينما يمكن أن أؤكد لك أن الجمجمة لا يزيد عمرها على خمسة أعوام ..

ثالثًا : ـ وهو الأهم ـ جثة الميجور لم تفقد .. لقد وجدوها كاملة بعد موقعة عنيفة مع (الماساى) ، وقد أرسلوا جثمانه إلى إنجلترا حيث دفن هناك .. الجمجمة التى تراها إذن لا تخص على الإطلاق من كان يدعى بالميجور (آرثر) .. »

هنا أرتج على ..

لقد كان على علم بكل شىء وهدم كل الهيكل المنطقى المتهالك الذى شيدته فى ذهنى ..

لما رأى علامات الحيرة والارتباك على وجهى قال :

ـ « أنت من الطراز الذى يبحث عن تفسير كل شىء بالورقة والقلم .. هناك أشياء لا تفسير لها يا بنى وهذه الجمجمة نموذج لها .. لكنى أتوقف هنا أمام ما قاله الزعيم : الميجور (آرثر) لم يستكمل عمله لهذا حلت روحه فى طبيبكم هذا ، وجاء إلى البلاد حاملاً الوجه ذاته كى يستكمل ما بدأه ..

« هنا أفكر فى عمق .. أفكر فى جدية .. ماذا لو كنت أنا حقًا تناسخًا لصاحب الجمجمة ـ الذى هو الميجور (آرثر) ، أو قد لا يكون هو ـ وقد جئت هنا لأواصل ما بدأه ؟ »

قلت له فى ضيق :

ـ « سيدى .. لقد فكر الهندوس فى مبدأ تناسخ الأرواح ، كمجرد محاولة بدائية لتفسير بعض الظواهر الغامضة .. مثل لماذا تتصرف القطة مثل الإنسان أحيانًا ، ولماذا يعتقد أحد البشر أنه واحد من عظماء التاريخ القدامى .. كانوا يعتقدون أننا نحاسب عن ذنوبنا فى

حياة أخرى على هذه الأرض .. الشرير يموت ويعود للحياة حمار جر يتلقى السياط .. واللص يموت ويعود للحياة صرصورًا ..

« لكن المبدأ لا يروق لى من الناحية الدينية .. ولا يروق لى علميًا .. ربما كان التصديق فى قانون الصدفة أكثر شرفًا ومنطقية .. هناك شخص يشبهك وجد فى (كينيا) يومًا ما .. »

ـ « ليس من زمن بعيد يا (علاء) .. ليس من زمن بعيد .. لقد كان هذا التعس حيًا مثلى ومثلك منذ خمسة أعوام .. »

تذكرت هذا فقلت بلهجة منتصرة :

ـ « حتى لو قبلنا بمبدأ التناسخ ـ ولن أفعل هذا أبدًا ـ فالروح لا تحل إلا بطفل يولد .. من العسير أن تحل ببالغ مثلك هو أنت كما كنت منذ خمس سنوات .. »

قال فى عصبية وهو ينهض ويجوب الغرفة جيئة وذهابًا :

ـ « ومن قال إن هراء الهندوس له أى منطق من

الصحة ؟ أنا أفكر فى نوع من الاستحواذ .. الحلول .. أفكر فى أى حل خوارقى عصى على التفسير بالمنطق العلمى .. »

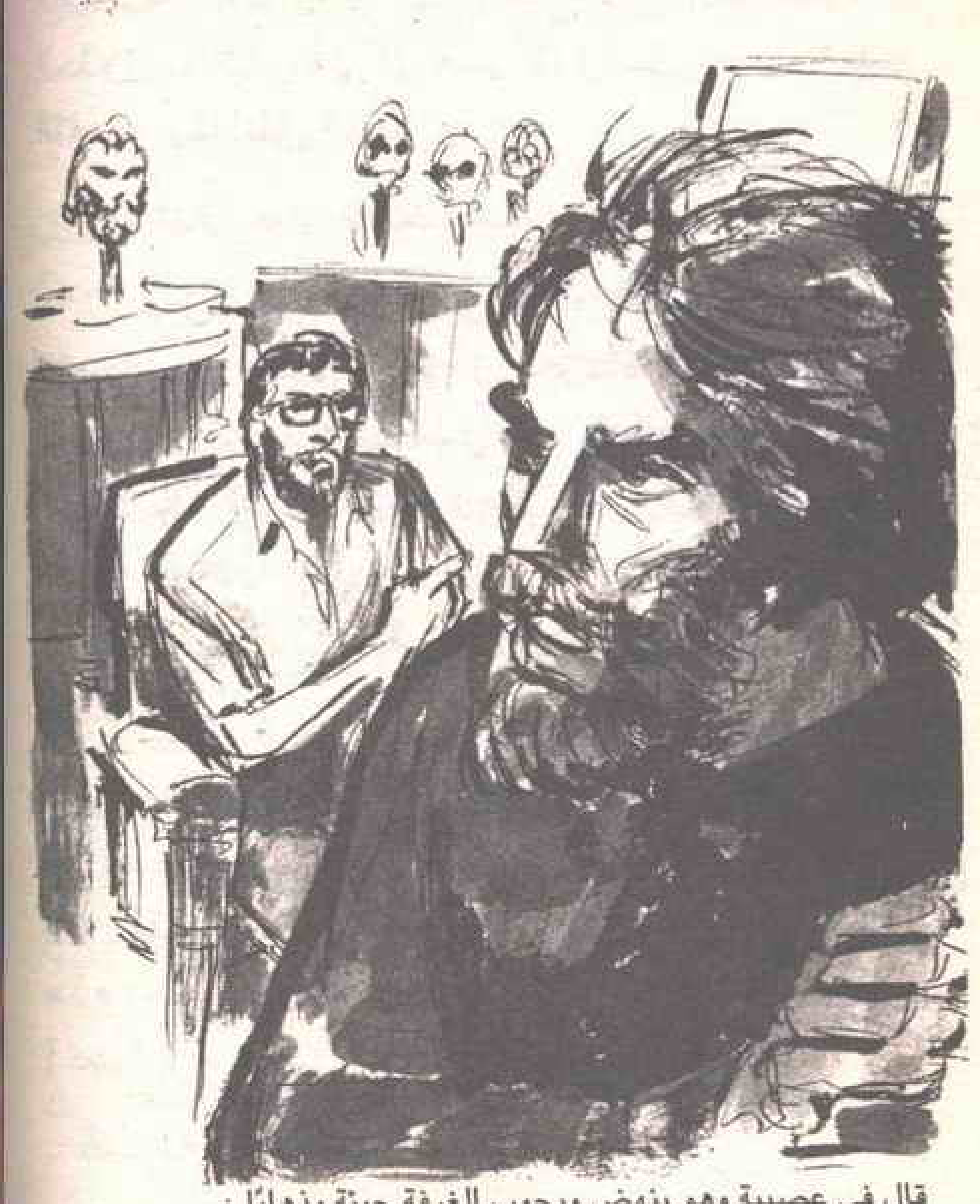
تنهدت فى صبر ونهضت بدورى :

ـ « بروفسور .. أرى أن هذه الجمجمة لغز وقد انتهى ، ولا يجب أن يجعل الحياة أكثر تعقيدًا .. أقترح أن تضع هذه على أقرب رف فى معملك أو تواريها التراب ، وتنسى كل شىء وتعود لممارسة حياتك المعهودة .. »

ابتسم بسمة مخيفة وقال وهو يجفف العرق على جبينه :

ـ «سأفعل هذا .. لكن أولاً سأرسل الجمجمة وقطعة من أنسجتى إلى إنجلترا .. إن الفحص المناعى وأسلوب PCR لقادران على معرفة هل هذه جمجمتى أم لا .. هذه عملية معقدة لا أجرؤ على تجربتها هنا فى (كينيا) .. »

قلت له وأنا أفتح الباب :



قال فى عصبية وهو ينهض ويجوب الغرفة جيئة وذهابًا :
- « ومن قال إن هراء الهندوس له أى منطق من الصحة » ؟ ...

- « كما تشاء .. لكن أرجوك عد لحياتك الطبيعية .. إن البقاء فى غرفة مغلقة مع فكرة مغلقة لهو الطريق الملكى إلى الجنون .. »

ابتسم فى غموض ولم ينبس ببنت شفة ..

★ ★ ★

كان على فى اليوم التالى أن أقوم بمسح طبى جديد مع نفس الفريق .. وفى هذه المرة كان على الفرنسى (سينوريه) أن يكون معنا ليشرف على أدائنا .. سرنى هذا ، فالرجل واسع العلم ومثقف .. صحيح أنه غريب الأطوار لكن ليس كصاحبنا بالتأكيد .. كانت رحلة السيارة طويلة وكنت فى حاجة إلى موضوع يزجى الفراغ ..

تذكرت هنا أننى لم أعط أى وعد ، ولم يطلب من (ويلسلى) التزام السرية بخصوص قصة الجمجمة هذه ، لذا حكيتها للفرنسى على ضجيج المحرك ، وأصغى هو باهتمام شديد ..

وأنهيت القصة قائلاً :

ـ « الآن فكرة التناسخ تسيطر على الرجل .. لا أدرى كيف .. يعتقد أنه وجد بشكل ما فى جسد آخر ، وهذا الجسد هو الذى وجدنا جمجمته .. »

وابتسمت فى عصبية ، لكن الفرنسى لم يبتسم وظل ينظر لى مقطبًا فى جدية تامة ، وهو يقضم أنامله كعادته .. أخيرًا حين فرغت من قصتى قال لى :

ـ لهذا صار (ويلسلى) غريب الأطوار مختلفًا عما عرفناه ..

لقد كان غريبًا ، لكنه اليوم صار عجيبًا .. هل تعلم أنه ما من أحد يراه هذه الأيام على الإطلاق ؟ »

ثم فكر قليلاً وأضاف :

ـ « طبعًا مبدأ التناسخ مرفوض .. وحتى لو قبلناه فلم نسمع قط عن شخص يتناسخ وهو حى .. إن تفكير الرجل قد اضطرب كما هو واضح .. أرى أن أقوم بزيارته غدًا

معك فى معمله .. لا يجب أن يحمل الأمور أكثر من حقيقتها .. هذه جمجمة تشبهه .. لا أكثر ولا أقل .. لو أنك عددت الأشخاص الذين يشبهوننى لأصابك العجب .. »

وكانت السيارة قد وصلت إلى مشارف القرية ، فقال لى :

ـ « لننس هذا الآن ونفكر فى عملنا القادم .. »

* * *

٨ ـ شكوك ..

حين دخلت عيادة الأطفال فى الصباح التالى ، وجدت (برنادت) طبعًا .. هذا معقول ..

لكن الغريب هو أن المدير كان جالسًا أيضًا .. نعم .. الوغد السويدى ثقيل الظل جالس هناك على مقعد أمام مكتبها ، وقد وضع ساقًا على ساق فى ثقة وتحد .. ولاحظت أن جوربه الأيمن مثقوب على ارتفاع ثلاثة سنتيمترات من الحذاء .. سرنى هذا كثيرًا .. هناك ثغرات فى هذا الرجل ..

كانت (برنادت) جالسة أمامه فى ارتباك وشىء من الضيق ، وهذا طبيعى لأنه يعطل عملها بالطبع ، بالإضافة إلى أن له وجودًا ثقيلاً كالمصيبة ..

فلما رآنى نظر لى فى برود وقال :

ـ « د. (عبد العظيم) .. هل هناك عمل معين لك هنا ؟ »

قلت فى برود مماثل :

ـ « لاشىء .. ثمة أمور أرغب فى معرفة رأى الدكتورة (جونز) فيها .. »

قال بعينين ناريتين :

ـ « أنت مكلف بالعمل فى قسم الجراحة وفى مسح حالات (كالا آزار) .. لادور للدكتورة (جونز) هنا .. »

تجاهلته عن عمد ، ونظرت لـ (برنادت) وسألتها :

ـ « ما هى جرعة (البنتاميدين) للأطفال ؟ هناك حالة يرغب البروفسور (سينوريه) أن يعطيها هذا العقار .. »

أجابتنى فى صوت مبحوح قليلاً .. والحقيقة أن ما أثار غيظى أكثر من جلوس الرجل هنا ، هو أنه يحاول التظاهر بأنه (ضبطنى) متلبسًا .. كأنه وجد القط الذى يحاول التسلل إلى المطبخ ..

ليس من حق المدير أن يجلس وحده هذه الجلسة المنفردة مع إحدى الطبيبات .. إنه المدير لكن لا عمل

له هنا .. وتحت يده مئات من قطع الشطرنج يضعها حيث أراد .. أنا لم أره قط فى قسم الجراحة ولا فى أى مكان غير مكتبه .. هل لم يعد من مكان مهم فى (سافارى) كلها إلا هذه العيادة ؟ ببساطة وجوده هنا مريب ولا يعنى إلا شيئًا واحدًا ..

قال لى فى نفاد صبر :

- « الآن عرفت الإجابة .. يمكنك العودة إلى قسمك » .

قررت أن ألقى كرتى وأجرى على اللّه .. فقلت موجهًا السؤال إلى (برنادت) :

- « كنت أكتب تقريرًا مهمًا ، لكننى حائر بين لفظتين إنجليزيتين .. هل تصفين تحرش الرئيس بمرءوسته بلفظة Solicition أم Obtrusion ؟ »

قالت دون أن يبدو أى تعبير على وجهها :

- « Hoarassmenr أو Solicitation »

- « شكرًا .. »

وغادرت المكان دون أن أقول كلمة أخرى ..

إنها الحرب إذن ..

* * *

« هل تعتقد أن نساء كثيرات يرفضن الزواج من مدير (سافارى) ؟ تذكر أنه ما زال شابًا نوعًا ، وليس غولاً من ناحية المنظر .. على الأقل ليس جوال شحم مثل (بارتلييه) .. »

* * *

قابلتها فى الكافتيريا ، وكانت مهمومة صامتة قليلاً ، فقلت لها :

- « هل هذا الصمت من أجل تدخلى أم من أجل تدخله ؟ »

ظلت صامتة وابتسمت ابتسامة جانبية كسيرة ، ثم قالت :

- « لقد أفزعته حقًا .. كانت لعبة موفقة .. فى

الغرب لا تمر تهمة التحرش بأى نوع من البساطة ، ويكفى أن أشكوه أنا كى يفقد كل شىء بسرعة البرق .. إنه مهذب ـ أعترف ـ ولم يفعل شيئًا يضايقنى سوى الجلوس هناك .. صحيح أنه يقيد حريتى لكن هذا أسوأ ما فى الموضوع .. »

ـ « وكنت تفضلين أن أصمت .. »

ـ « لمصلحتك .. نعم .. »

قلت لها وأنا أضغط على أعصابى:

ـ « حين كنا فى قرية عبدة الأفاعى هؤلاء ، سألتك سؤالا واحدًا .. وقلت إنك ترجئين الإجابة لما بعد .. فهل توصلت إلى إجابة ؟ »

نظرت فى عينى وقالت :

ـ « أنت لم تسألنى ثانية وحسبت أنك نسيت الموضوع .. »

ـ « لا تكونى حمقاء .. أشياء كهذه لا تنسى .. أنت

فقط تتعمدين إغاظتى بأسلوب شرقى أعجب أنكم تعرفونه .. كنت أحسبكم عمليين أكثر من هذا .. »

صمتت قليلاً ثم قالت ودمعتان تترقرقان فى عينيها :

ـ « أنا موافقة ! »

تمسكت بالمنضدة كى لا تميد الأرض من تحتى .. أخيرًا أيتها الحمقاء .. أخيرًا أيتها العنيدة .. أخيرًا أيتها البلهاء ..

أشعر بما يشعر به الموشك على الإغماء .. كم أنا واهن !! وكما يحدث للمحتضرين تتداخل الصور فى ذهنى : الوباء والمعزل المشترك .. الحرائق التى تشتعل فى الوحدة .. سجناء فى أقفاص قبيلة تنتظر أن يلتهمونا كالدجاج .. العمى الذى أصابها وهواجس الموتى الذين يظهرون أمام عينيها فى كل صوب .. الفصيلة تحتل (سافارى) وتهدد بقتلنا جميعًا .. أين ذهب (أحمد عدنان) والكل يتهمنى بالجنون .. الإشعاع الذى يظهر فى كل مكان بالوحدة ومسدس فنى الأشعة

مصوب إلينا .. ننتظر فى القبو ، بينما ثعبان الأصلة يفرغ من وجبته ليبدأ التهام (برنادت) .. أمى تتكلم عن الخواجاية .. (بسام) يتهكم على .. التشنيكة .. الموكيت الوردى ..

لكم من ذكريات مشتركة ! أكثرها مخيف ، لكنه مع الزمن صار حميمًا .. باللّه عليك كيف لا يتزوج اثنان مرا بكل هذا معًا ؟ والحقيقة هى أنها كانت لى وكنت لها .. لكننا لم نتصور هذا قط ..

قلت بصوت كفحيح الأفاعى المصابة بسرطان الرئة :

ـ « متى ؟ »

ـ « سأخبر أبى وأنت تخبر والدتك .. »

ـ « وماذا لو لم يوافق ؟ »

ـ « سيوافق .. أنا فتاة رشيدة واختياراتى من حقى .. لكن اللياقة تقضى بأن يعرف .. »

كنت أتنفس بصعوبة ، وخطر لى أن الهيام يشبه الموت فى أشياء كثيرة حقًا .. سألتها بنفس الصوت :

ـ « إذن لماذا تبكين ؟ »

ـ « من التوتر العصبى .. ليس الموقف سهلاً .. وإلا فلماذا تبكى أنت أيضًا ؟!! »

★ ★ ★

عند العصر كنت راقدًا على الفراش فى حجرتى أرمق السقف وأحلم .. كانت الأحلام كثيرة جدًا إلى درجة أنها تؤلم .. وكنت أفكر فى شىء ثم أفكر فى آخر قبل أن أستوعب ما كنت أفكر فيه أولاً .. وفجأة يخطر لى شىء ثالث فأنسى ما كنت أفكر فيه .. الخلاصة أننى كنت موشكًا على الجنون ، وتذكرت قصة قصيرة لـ (دستويفسكى) العظيم ، جن فيها البطل فى الليلة التى صارحته فتاته بحبها له .. إننى أفهمها الآن ..

لهذا شعرت بامتنان حين سمعت القرعات على الباب ، وسمعت صوت (سينوريه) الفرنسى يدعونى .. لقد نسيت موعدى تمامًا ومن الواضح أن صبره نفد ..

حين فتحت له صاح فى عصبية :

ـ المواعيد ! هذا هو عيبكم معشر الشرقيين .. لا شىء يدعى المواعيد ! »

اعتذرت له بأننى كنت مرهقًا ولست على ما يرام ، ودسست قدمى فى الحذاء ، ووضعت المعطف على كتفى ، ثم لحقت به وهو يخف السير نحو معمل البروفسور (ويلسلى) ..

كالعادة لم يفتح لنا الرجل وطردنا بغلظة .. لكننا كنا مصريين .. وهكذا فتح الباب ووجهه مكفهر كسماء بلاده .. لاحظت أنه لم يسر كثيرًا بزيارة (سينوريه) له ، وقد نظر لى نظرة لوم معناها أنى تكلمت أكثر

من اللازم .. سأقول له لو انفردنا إنه لم يقل لحظة إن هذا سر بيننا ..

كنت مبلبل الفكر أحلق فى عوالم أخرى .. أستشعر سعادة جمة إلى حد أن الأمر صار مؤلمًا .. لهذا لم أكن على استعداد للاهتمام بالعالم الخارجى والآخرين .. كل شىء يدور أمامى هو مسرحية لا دور لى فيها .. بل إننى أراقب نفسى من الخارج ، وأتساءل : كيف سيرد الفتى على هذا الاتهام ؟؟

راح (سينوريه) يتفقد المعمل ويتأمل الجماجم فى اهتمام ، ثم توقفت عيناه على رأس (ويلسلى) الموضوع على المنضدة .. لم يعلق وإن بدت عليه الرهبة ..

سأل (سينوريه) الإنجليزى وهو يجوب المعمل :

ـ « هل من رءوس أخرى تقوم بإعدادها هذه الأيام ؟ »

قال هذا الأخير وهو يمضغ الغليون بأسنانه :

- « لست متحمسًا كثيرًا .. هناك رأس لكنى بدأت فيه ولم أستكمله .. »

وأشار إلى الجمجمة التى كان قد ألصق عليها بعض قطع الصلصال .. فقال (سينوريه) :

- « لا أدرى .. أجد عشوائية ما فى هذا التركيب .. هل قمت بقياس العظام جيدًا ؟ »

قال (ويلسلى) بارتباك :

- « بالتأكيد .. وأنا لا أخطئ إن كان شىء كهذا يدور بذهنك .. »

لم أدر ما يفكر فيه الفرنسى لكن من الواضح أن فكرة مهمة ما تعتمل فى ذهنه .. وبعد قليل سأل مضيفه :

- « قيل لى إنك لم تدخل المشرحة من فترة .. هناك جثتان فى الثلاجة تنتظران تقريرك لكنك لم تفعل .. »

ضرب (ويلسلى) بكفه المفتوحة على صدغه وقال :

- « سأفعل .. سأفعل بالتأكيد .. لكنى لست رائق المزاج .. هذه أمور تحتاج إلى تركيز .. »

ابتسم (سينوريه) كمن يدرك الأمر ثم اتجه إلى الباب ، وقال وهو يمسكنى من ذراعى :

- « طبعًا طبعًا .. سنتركك الآن واغفر لنا كل هذا التطفل .. »

وغادرنا المعمل الكئيب ..

قلت له ونحن على الباب :

- « لم تقل له شيئًا من الأشياء التى كنت تزمع قولها .. بل إنك ... »

- « ش ش ش ش ش ! إن للجدران آذانًا يا بنى .. »

قالها وهو يضع سبابته أمام شفتيه ، ثم تأبط ذراعى كأننى صديق قديم وابتعد بى عن المعمل ..

قال لى وهو مستمر فى السير :

- « لا أدرى موضع هـذا من الاستنتاجات .. لكن هذا الرجل ليس (جون ويلسلى) !! »

* * *

٩ـ لا أصدق حرفًا ..

وضعت يدى على بطن الفتـى الممتلـئ ورحـت أضغط فى رفق ..

قال (سينوريه) وعيناه تلمعان بالانتصار :

- « هل تشعر بهذا ؟ ما رأيك ؟ »

نظرت له فى شك .. لا بد أن هناك كمينًا فى الأمر لكنى لا أعرف ما هو .. لهـذا قلت له الجواب الخطأ وأنا أعرف جيدًا أنه خطأ :

- « هذا سائل .. إنها حالة استسقاء .. »

ضحك حتى دمعت عينـاه ، واستدار للفتـى الراقد على الفراش وسـأله بالسواحلية التى لا أعرف منهـا إلا بضـع كلمـات .. سـأله سؤالاً مـا ، فكـانت إجابـة الفتى كلمة واحدة :

- « (توركانا) .. »

التفت لى الفرنسى وقال :

ـ « هل سمعت ؟ لقد شخص الفتى حالته .. سألته عن قبيلته فقال إنه من قبيلة (توركانا) التى تعيش على ضفاف النهر الذى يحمل هذا الاسم .. ليس استنتاج التشخيص الصحيح صعبًا الآن .. كل أفراد قبيلة (توركانا) مصابون بمرض الحويصلات المائية الذى ينتقل من الكلاب .. وهذا الذى يملأ بطن الفتى ليس استسقاء بل هو حويصلة مائية عملاقة .. الآن وصلنا إلى التشخيص بمجرد كلمة واحدة دون أشعات ولا استكشاف .. لكن هذا لن يغنينا عن ذاك .. ما زال من الوارد أن يصاب واحد من أفراد هذه القبيلة باستسقاء أو أى سبب آخر لانتفاخ البطن »

قلت له وأنا لا أخفى إعجابى بعلمه :

ـ « أنت تتكلم السواحلية ؟ »

مط شفته السفلى وقال :

ـ « لا بد لطبيب الأمراض الحارة من إجادة لغة القوم حيث يعمل .. لا أثق كثيرًا بالمترجمين .. »

انتهينا من المرور فى العنبر فدعانى إلى مكتبه لنحتسى بعض القهوة .. وافقت فى مرح ، أولاً لأن القهوة هنا جيدة وتوشك أن تذكرنى بالقهوة عندنا .. أسوأ أنواع القهوة عندنا ، وهذا معناه أنها أفضل مليون مرة من القهوة المعتادة فى (سافارى ـ 4) .. ثانيًا : كنت أرغب فى نهم أن أعرف لماذا قال ما قاله منذ قليل .. لقد رفض أن يتكلم قبل أن يمر على العنبر سريعًا ..

صب لى بعض القهوة فى حجرته المنسقة الجميلة ، وقال لى :

ـ « أنت طبعًا تفترض أننى مجنون أو مخدوع .. لكن أسبابى قوية جدًا .. هذا الرجل ليس (ويلسلى) .. »

تناولت منه القهوة شاكرًا ، وقلت :

ـ « لا بد أن لديك أسبابًا هائلة .. هذه أشياء لا تقال بسهولة »

قال لى وهو يجلس ويضع ساقًا على ساق :

ـ « الرجل كف عن ارتياد المجتمع .. أغلق معمله

على نفسه وانعزل تمامًا .. الرجل لا يخطو أبدًا إلى المشرحة حيث عمله الأساسى الذى يتقاضى المال من أجله .. الرجل لم يعد يجيد تركيب الجماجم .. أنا رأيته يعمل من قبل ، وأشهد أن هذا الذى فى المعمل الآن لا يملك أدنى فكرة عن الموضوع .. هل لاحظت أنه لم يشعل الغليون ولا مرة ؟ إنه فقط يلوكه ..

« ثم إن ملامحه اختلفت ! أنت لا تعرفه جيدًا أما أنا فمن العسير خداعى .. حتى لو كان الشبه قويًّا فهناك شىء ما مختلف فيه .. »

وضعت الكوب الورقى على منضدة زجاجية أمامى ، وقلت فى ضيق :

- « إن الأمور تتعقد بشكل لا يوصف .. ماذا تريد من هذا كله يا سيدى ؟ »

قال وعيناه تلمعان فى حماسة :

- « هذا الرجل فى المعمل ليس (ويلسلى) .. الجمجمة هى جمجمة (ويلسلى) .. بينما الرجل هو - على الأرجح - قاتله !! »

★ ★ ★

حين خلوت إلى نفسى من جديد ، أخرجت المفكرة وكتبت فيها خواطرى :

١ - أنا لا أصدق حرفًا من هذا الهراء ..

٢ - من الواضح أننى محاط بالمخابيل وليرحمنا اللّه .. هذا الـ (سينوريه) ليس أرجح عقلاً من (ويلسلى) ..

٣ - لا يمكن أن يكون (ويلسلى) هو قاتل (ويلسلى) بعد أن تنكر كـ (ويلسلى) ، والجمجمة هى جمجمة (ويلسلى) .. لأن القاتل لا يحتفظ بجمجمة ضحاياه ولا يتنكر فى شكلهم ليمارس حياتهم .. ولو فعل هذا فما المبرر ؟

٤ - ولو افترضنا وجود مبرر ؛ فلن نجد أبدًا مبررًا يجعل القاتل يعيد تشكيل ملامح ضحيته ليفضح نفسه ..

٥ - ولو فعلها القاتل على سبيل التسلية ؛ فلن يعرضها على كل من يدخل معمله على كل حال ، ليجد الضيف أنه لا تفسير هنالك ..

٦ ـ التفسير الأقرب للمنطق إذن هو أن (ويلسلى) قد تبدلت أطواره من جراء هذه التجربة الغريبة .. وفكرة العدمية قد سيطرت عليه إلى حد أنه لم يعد يبالى بعمله ولا رفاقه ولا هوايته الوحيدة ..

٧ ـ ومن هنا نعرف أن (سينوريه) طبيب بارع ، لكنه أحمق وخيالى فى تعامله مع الحياة ، وهو قابل للإيحاء كما أن رغبته العارمة فى أن يبهرنى ، أو يضيف جديدًا ، قد جعلته يصل إلى استنتاجات أقل ما تصفها به هو السخف ..

ارتحت لهذه التفسيرات فأغلقت المفكرة ..

لقد فندت نظريات كثيرة : نظرية الميجور الأب ـ نظرية الصدفة ـ نظرية التناسخ الروحى ـ نظرية القاتل المتنكر ..

إننى بارع حقًا فى تفنيد النظريات ..

لكن ما نظريتى أنا نفسى ؟

ألقيت بالمفكرة فى الهواء ، واستلقيت على الفراش ضاحكًا ..

لا توجد نظريات !! أنا اليوم سعيد راض عن الحياة .. فليذهب الإنجليز الذين يجدون جماجمهم ، والفرنسيون الذين يشكون فى الإنجليز ، إلى حيث ألقت ..

ما لى أنا وكل هذا ؟

* * *

١٠ ـ موعد فى سمارة ..

اتصلت بأمى وأخبرتها بكل شىء على الهاتف .. طبعًا لم نستطع تبادل مكالمة حرة لأن الثوانى هنا تساوى دولارات .. فقط قلت لها النقاط الأساسية ولم أترك لها فرصة الاعتراض ، ووعدتها بخطاب طويل أشرح فيه كل شىء .. هذا الخطاب كتبته بالفعل أمس وأرسلته صباح اليوم ..

لسوف تحتج أمى وتشكونى للجميع ، ثم تنسى الأمر برمته وتتمنى لى السعادة ، وتقبل (برنادت) كأنها أختى .. أعرف هذا لأن هذه الطيبة العجوز لا تحقد على أحد مهما حاولت ..

الآن ما زال أمامى جبل من الإجراءات ، فأنا عمليًا لا أعرف كيف يتزوج الناس بعضهم فى الخارج .. لا بد من زيارة السفارة فى (نيروبى) لأعرف ما لى وما على ..

يجب ترتيب خطة محكمة .. أين وكيف نعيش ؟ كيف ننفق على أنفسنا ؟ ماذا عن دراستى ؟ ماذا عن أبيها الذى أخشاه كالموت ؟

كل هذا يجب وضع الخطوط الأساسية له ، لكنى بالفعل بحاجة إلى مناقشة طويلة مع مصرى آخر واسع الخبرة .. أريد أن أسمع كلامًا بالعامية المصرية لا يجهد قائله أو سامعه .. أريد من يناقشنى وهو محمل بكل الخلفيات المصرية : يعرف (أم كلثوم) و(نجيب الريحانى) و(إسماعيل يس) ، ويأكل الطعمية والملوخية وحضر هزيمة ٦٧ ونصر أكتوبر ، ويفهم معنى كلمات مثل (كوسة) و(فى المشمش) .. أريد شخصًا ممن (دهنوا الهوا دوكو وأخرجوا دهنًا من الزلط) .. هذا الشخص سأجده وأجلس معه وأسمع مقترحاته .. وأنفذها جميعًا ..

فقط لن أمتثل لأمره لو طلب منى أن أنسى الموضوع ولا أتزوج (برنادت) ..

* * *

فى الصباح توجهت مع الحملة إياها إلى قرى (الكيكويو) من جديد ..

أنتم تعرفون الآن أننى أقوم بهذه الرحلة يومًا وأستريح يومًا آخر .. كنت وحدى هذه المرة من دون (سينوريه) .. وكان علينا أن نمر من جديد على القرى التى مررنا بها أول يوم لاستكمال بعض الأبحاث التى طلبوها منى فى الوحدة .. يومًا سينتهى داء (كالا آزار) من هذه البلاد ، كما أوشك داء النوم على الانتهاء ، وكما أوشك عمى الأنهار الذى قاومه بشراسة رجل الصحة العالمية العظيم (إبراهيم مالك سامبا) ..

سأكون يومها مجرد مسمار صغير فى آلة الحفر العملاقة التى أزالت هذه الأمراض نهائيًا من تلك البلدان ، ويومها سأحكى هذا لأولادى فخورًا .. كم تمنيت لو أشارك فى شىء مماثل ضد البلهارسيا فى مصر ، لكن أحدًا لا يعبأ بى على الإطلاق ، ولا أعرف من أين أبدأ دون أن أتلقى سخرية المسئولين أو يطردنى رجال الأمن الواقفون على أبواب الوزارات ..

توقفنا فى قرية (ماندونجوا) تلك القرية التى جاءت منها الجمجمة الشهيرة .. توجهنا لمقابلة الزعيم والساحر (كوديو) الذى صرتم تعرفونه الآن .. وقلت له عن طريق المترجم : إننى سأكمل ما بدأناه ..

ـ « ليس قبل أن تتناولوا الكاسافا !! »

وصفق بيديه فجاءت النسوة القبيحات اللواتى يضعن الروث وبول الماشية على رعوسهن .. فركعت أمامى واحدة منهن وعجنت بيديها المتسخة كرة كبيرة من الكاسافا ووضعتها فى إناء مشروخ أمامى .. والمفترض كالعادة أن آكل وإلا كنت أهينهم فى عقر دارهم !

رحت أدس هذه البطاطا المعجونة فى فمى ، وسألت الزعيم :

ـ « تلك الجماجم البريطانية التى تكلمت عنها .. من أين جئتم بها ؟ »

قال فى ملل عن طريق مترجمنا (تارو) :

ـ « قلت لك إنهم فى الغالب هلكوا فى أثناء صراعهم مع الماساى .. أو ربما فى ثورة (الماو ماو) .. »

حاولت ألا أكون مهاجمًا مستفزًا وقلت :

ـ « أيها الزعيم .. هذه الجماجم لا يمكن أن تعود إلى ذلك الزمن .. نحن متأكدون من أنها تعود إلى أعوام خمسة أو أقل .. هؤلاء البريطانيون ماتوا قريبًا جدًا .. »

صمت قليلاً ثم قال ضاغطًا على حروفه ما معناه :

ـ « أعوام خمسة ؟ ربما .. »

ـ « والتفسير ؟ »

ـ « لا أعرف .. لكنهم كانوا مصدر إزعاج للجميع .. جاءوا من الجنوب .. من (تنزانيا) كى يجعلوا حياتنا سيئة .. كانوا كمن يدعون الناس إلى الاعتداء عليهم ، ولو كان أحد الكيكويو قد قتلهم فلن أندهش كثيرًا .. »

ـ « هل تعرف من كان يعرفهم ؟ »

قال فى تحفظ :

ـ « كان معهم رجال من قرية (بولوما) .. يبدو أن بعض السود راقت لهم حياة النهب هذه .. »



توجهنا لمقابلة الزعيم والساحر (كوديو) الذى صرتم تعرفونه الآن .. وقلت له عن طريق المترجم : إننى سأكمل ما بدأناه ..

وهكذا انتهت المحادثة فلم يكن الرجل راغبًا فى مزيد من الكلام .. لكنها معلومات مهمة .. سأخبر بها (ويلسلى) ما لم يكن يعرفها فعلاً كالعادة .. صاحب الجمجمة الذى يشبهه كان من المرتزقة الذين يعيثون فى الأرض فسادًا .. يبتزون السود ويفرضون عليهم إتاوات كعصابات المافيا بالضبط .. وفى الغالب كان هذا سبب هلاكه .. إن من يعش للعنف يمت به ..

ثمة شىء آخر من تلك الأشياء المؤكدة التى لا دليل عليها على الإطلاق ولا يمكن إثباتها : هذه القبيلة بالذات وهذه القرية هى من قتل صاحب الجمجمة ..

هذا واضح تمامًا من نظرات الزعيم وتحفظه وكراهيته الواضحة لصاحب الجمجمة .. لقد قتلوا الرجال ثم أعطوا جمجمته للطبيب الإنجليزى الذى يشترى الجماجم .. نشاطهم سرى ونشاط الطبيب سرى كذلك .. لن تصل الجمجمة لمن يسأل أسئلة .. ولعلهم فعلوا ذلك إمعانًا فى التمثيل بصاحب الجمجمة وإهانته ..

إن الرجل الأبيض لم يعد عدوًا اليوم ـ أو المفترض أن يكون كذلك ـ ولن يمر مقتل سائح بريطانى بهذه البساطة .. نعم سائح .. وقت نيوع الخبر لن يقول أحد إنه مرتزق ، بل سيتكلم العالم الغربى عن المذبحة التى دبرتها قبيلة الكيكويو الكينية لسائح مسالم ..

واصلت عملى فى القرية ، ونسيت كل شىء عن هذه المحادثة ، فلم أتذكرها إلا فى نهاية اليوم ، وبعدما مسحنا ثلاث قرى أخرى ، حين سألت السائق :

ـ « إلى أين نذهب بعد غد ؟ »

وكنت قد كففت عن محاولة فهم ألغاز الخارطة على كل حال .. لم أكن قط بارعًا فى الجغرافيا ..

قال الرجل وهو يدير محرك السيارة :

ـ « مجموعة القرى الغربية على النهر .. أولها (بولوما) .. »

هنا تذكرت الاسم .. هذا هو ! سيكون لدى القوم هناك مزيد من المعلومات عن صاحب الجمجمة هذا ..

* * *

قرعت باب (ويلسلى) مرتين .. وأنا اعرف أنه لا يرد أبدًا هذه الأيام .. كانت أيامًا سعيدة حين كان يطلق السباب ويرد بعدها .. لكنه فى هذه المرة كان مصرًا على الصمت ..

لا أدرى لماذا مددت يدى إلى المقبض هذه المرة .. مجهود لا جدوى منه لكنى فعلته .. ومن الغريب أن الباب انفتح .. لقد نسيه الرجل وهذا يدل على سوء حالته فى الآونة الأخيرة ..

لم يكن جالسًا على مكتبه ولا أمام الحاسب الآلى ..

كان جالسًا هناك فى ركن المكان وظهره للباب ، وقد غمره الظلام .. كما يرمز مديرو الإضاءة السينمائيون للحالة النفسية السيئة للممثل بإضاءة معتمة تملؤها الظلال .. وأمامه على منضدة صغيرة كان الرأس الذى أعاد تركيبه .. على رأسه الكاسكيت وبين شفتيه الغليون ، ولا يكف عن النظر إليه بثبات مخيف ..

لقد ساءت حالة (ويلسلى) كثيرًا ..

لقد ساءت أكثر من اللازم ..

عرفت هذا حين رأيت المسدس الذى فى يده والذى يصوبه إلى صدغه ..

* * *

ـ « أرجوك عد لحياتك الطبيعية .. إن البقاء فى غرفة مغلقة مع فكرة مغلقة لهو الطريق الملكى إلى الجنون .. »

* * *

سمع صوت الباب ينغلق وشعر بخطواتى ، فلم يلتفت .. فقط قال :

ـ « مرحبًا يا بنى .. يؤسفنى إنك جئت فى وقت غير مناسب .. حسبت أننى أغلقت الباب .. »

صحت فى قلق وأنا أثب للأمام :

ـ « لحظة ! لا أفهم لماذا تفعل هذا الذى تفعله ، لكن توقف !! »

وجدت المسدس مصوبًا إلى رأسى أنا ، فقد أدار مقعده الدوار ليواجهنى ، وقال فى حزم :

ـ « مكانك ! »

توقفت وقد قدرت أنه فى هذه الحالة لن يتورع عن تفجير رأسى لو أبديت حماسة زائدة .. تراجعت للوراء بضع خطوات ، لكنى لم أجسر على الابتعاد أكثر ..

- « أرجوك يا بروفسور .. لا تفعل .. »

قلتها بلهجة كالبكاء ، فقال وهو يعيد المسدس ليلصقه إلى صدغه :

- « لا يوجد سبب واحد يمنعنى من أن أفعل .. لقد أنذرنى الموت بقدومه .. رأيت رأسى المقطوع على المنضدة أمامى .. أمضيت أيامًا طويلة وأنا أنظر إلى وجهى فى قناع الموت ، واليوم لم يعد لى مفر إلا الموت ذاته .. »

كنت أتوقع الانهيار التام لكن الانتحار لم يخطر لى ببال ..

صحت من جديد :

- « أرجوك يا بروفسور .. لا تفعل .. هذه الجمجمة تخص قاتلاً بريطانيًا .. واحد من المرتزقة الموجودين تحت كل حجر فى إفريقيا .. وقد قتله رجال (الكيكويو) .. ليست له أية علاقة بك .. إنها الصدفة ! »

- « وأنا أعرف أنه لا توجد مصادفات بهذا الإتقان .. »

- « أرجوك .. »

قال فى ضيق :

- « لا تتماد فى الإلحاح يا (علاء) .. قد تضايقنى .. وأنا لا أريد إنهاء حياتى بعملية قتل .. »

- « هذه جريمة قتل بالفعل .. أنت تقتل شخصًا بريئًا هو أنت ! فكر فى كل الجماجم التى ستظهر أنت وجهها الحقيقى للوجود يومًا ما ! »

باشمئزاز قال :

- « لم أعد أبالى بشىء .. لو أننى وجدت ورقة بمليون دولار على الأرض لما وجدت العزيمة الكافية لالتقاطها .. »

- « لاتوجد ورقة بمليون دولار .. ولكن حياتك نفسها تستحق .. »

لاجدوى .. ولو خرجت من الباب طالبًا عونًا لأطلق الرصاص ..

هنا خطرت لى الفكرة الوحيدة الممكنة .. سقطت على الأرض وأنا أطلق صرخة كمن أغشى عليه ..

كما توقعت ارتبك ، وبرد فعل تلقائى أبعد المسدس عن صدغه ، ونهض هاتفًا :

- « بحق السماء ! هل أنت مصاب بالصرع أم ... ؟ »

لو فكرت مليًا فيما به لبدا لى حماقة ، لكنى لم أفكر وكنت سعيد الحظ إلى حد لا يصدق .. الحظ دائمًا فى جانب المبتدئين الذين لا يفهمون حماقة ما يفعلون .. لعله (الستر) كما يقولون عندنا ..

ما فعلته أنا هو أن مددت يدى إلى المنضدة جوارى وأمسكت بجمجمة كانت هناك ، وقذفتها بأعنف ما استطعت

نحو رأس الرجل ، حتى إنها تهشمت حين ارتدت من عنقه إلى الجدار .. أطلق ما بدا لى سبة ، وبالطبع ضغطت أصابعه على الزناد .. لكن الرصاصة لم تصبه ولم تصبنى .. ثم سقط على الأرض فاقد الوعى ..

كان أول ما فعلت هو أن انتزعت المسدس من يده ، وتحسست نبضه .. أرجو ألا أكون قتلته بسبب حماستى المشبوبة لإنقاذ حياته .. ما زال حيًا والحمد للّه ..

ونظرت إلى الجدار .. كان هناك ثقب قبيح فيه .. لقد مات الجدار بطلقة محكمة فى أحشائه .

ثم إننى هرعت إلى الخارج أطلب نجدة ..

البروفسور (ويلسلى) حاول الانتحار ، وقد أنقذته عن طريق تهشيم رأسه بجمجمة ! تبدو قصة مجنونة لكنها الحقيقة !

لم أبحث كثيرًا لأن العشرات كانوا قد هرعوا إلينا عند سماع الطلقة ، ورأى أحد رجال الأمن السود المسدس فى يدى فصاح وهو يخرج مسدسه ، ويتخذ وضعًا ممتازًا للرماية كالذى نراه فى الأفلام الأمريكية :

ـ « ألق بهذا حالاً ! »

* * *



١١ ـ كشف الأوراق ..

بعد انتهاء التحقيق تم وضع (ويلسلى) تحت المراقبة ، وأعطوه من العقاقير المهدئة ما يكفى لتنويم حوت ..

وجاء المدير لينظر لى فى برود ويقول :

ـ « عمل شجاع بالتأكيد .. لكن يبدو أن ما سمعته عنك صحيح .. »

ـ « وما الذى سمعته يا سيدى ؟ »

قال فى غموض سمج :

ـ « إنه صحيح تمامًا .. »

لم أسأله أكثر لأثير غيظه ، وإن كنت أعرف السمعة التى تلاحقنى ، والتى يتكفل بها (بارتلييه) الثرثار .. أنا مصدر للمتاعب أينما حللت .. وهأنذا بمجرد وصولى

إلى (سافارى) قد صار لى دور ما فى جنون أفضل أطباء التشريح عندهم ..

ثم إننى ابتعدت فى تؤدة ، وكنت أتمنى أن أتأكد أنهم سيراقبون الرجل جيدًا .. ثمة أشياء يجب أن أقوم بها بنفسى لأنى أحيانًا أرى الآخرين أغبياء بطيئى الفهم إلى حد لا يوصف .. هم لم يروا عينيه ، أما أنا فرأيتهما وأعرف أنه سيقتل نفسه .. بالتأكيد سيقتل نفسه عند أول فرصة .. هم لن يعرفوا هذا .. لن يصدقوه .. وسيتركون جواره فى الفراش أول سكين فاكهة أو زجاجة عقاقير ، وبعد ما تقع الواقعة سيقولون : خسارة ! لقد كان جادًا !

وجاء (سينوريه) يربت على كتفى ، وقال :

ـ « عمل بارع .. ألم أقل لك إنه على شىء من الخبال ؟ »

قلت له فى برود :

ـ « بلى يا سيدى .. لكنك كذلك قلت إنه هو قاتل (ويلسلى) أعتقد الآن أن هذا الاحتمال مستبعد .. »

ـ « القتلة ينتحرون يا بنى .. إن تأنيب الضمير .. »

ـ « ليس هنا .. ليس هنا .. الرجل هو (ويلسلى) بلا شك .. وهو لا يعرف عن هذه الجمجمة أكثر مما نعرفه نحن .. وقد جن من هول الموقف .. أن تجد جثتك أمامك .. أن تجمع بقاياك بنفسك ! »

ولم أنتظر حتى يرد وابتعدت ..

كنت أنتظر اليوم التالى فى شوق ..

* * *

قرية (بولوما) على حافة النهر ..

الموعد الذى كنت أنتظره فى شغف ..

قلت لزعيم القرية إن هناك من كانوا يعملون مع البريطانيين من أهل قريته .. منذ خمس سنوات تقريبًا ..

ـ « وماذا تبغى منهم ؟ »

كان هذا هو سؤاله المرتاب كما نقله لى (تارو) فقلت :

ـ « كان البريطانيون مصابين بمرض (الإيدز) .. ونحن نعتقد أنه انتقل للرجال .. »

طبعًا الإيدز لاينتقل بالتعامل .. لكن هذه قبيلة بدائية ومن الحظ الحسن أنهم سمعوا عن الإيدز أصلاً .. لا أحسب بينهم من حصل على زمالة الأمراض المعدية ..

ثم كان طلبى المنطقى : أريد مقابلة هؤلاء والتأكد منهم ..

فكر الزعيم قليلاً ثم أملى على أحد الرجال عدة أسماء وسرعان ما امتلأت فرجة الباب بالسود .. عددهم كان نحو العشرة لكنهم فى حجم خمسين ..

لو كان لى أن أصف هؤلاء الرجال بكلمة واحدة فهى : شدة البأس .. كانوا غلاظًا شدادًا مفتولى العضلات ، والشراسة على ملامحهم كأنما هو توقيع يؤكد انتسابهم للمرتزقة .. كانوا مرتابين طبعًا ولكن الزعيم قال لهم بضع كلمات هدأت من روعهم ..

طلبت منهم الجلوس ، وطلبت من إحدى الممرضتين

أن تأخذ منهم عينات الدم .. لكنها أجفلت لأنها سمعت كلمة (إيدز) ضمن كلامى ، والتعامل مع دم المصابين بهذا المرض يحتاج إلى أعصاب من حديد ..

كنت أنا أملك هذه الأعصاب من حديد ، والسبب طبعًا هو أن القصة ملفقة .. مجرد ذريعة لجمع كل هؤلاء فى مكان واحد .. لهذا توليت أنا المهمة ، وكانت أوردة الرجال غليظة كخراطيم إطفاء الحريق مما جعل الأمر هينًا ..

قلت لهم على لسان المترجم :

ـ « أنا أعرف أنكم كنتم تعملون مع المرتزقة من (تنزانيا) .. وأعرف أن عملكم لم يكن بالضبط قانونيًا .. لكن لا شأن لى بهذا .. أنا مجرد طبيب يهمه التأكد من أنكم لن تنقلوا الوباء إلى هذه القرية وأطفالكم وزوجاتكم .. »

وأشرت إلى وجهى وقلت :

- « لا تنسوا أننى لست بريطانيًا ولا غربيًا .. أنا إفريقى مثلكم .. »

بدأ القوم يتكلمون بصوت عال .. وبدا أنهم غاضبون بشدة .. يدفعون عن أنفسهم تهمة مشينة ، وقال لى (تارو) :

- « يقولون إن دمهم نقى كدم طفل .. أنت تحاول إلصاق العار بهم ، ولسوف يطردون من القرية شر طردة .. »

- « للأسف حتى دماء الأطفال غير مضمونة هنا .. لا بد من التحرى جيدًا و ... »

لكن اللغط تعالى .. هنا صاح الزعيم فيهم مغضبًا .. (شخطة) لا بأس بها أبدًا جعلتهم يخرسون .. طبعًا هذا من حقه لأن مصلحة الفرد لا تهمه .. إنه مسئول عن القرية كلها ، ولو تنازل من أجل واحد فهو يؤذى الآخرين .. إن بعض القسوة أدل على الرحمة أحيانًا من رفق كثير أحمق ..

قلت للرجال على لسان مترجمى ، وأنا أجمع المزيد من العينات :

- « كان هناك واحد بالذات من البريطانيين غريب المنظر .. له رأس عملاق .. هذا الرجل كانت بعض القبائل تسميه الميجور (آرثر) لأنه يذكرهم بعسكرى بريطانى قديم .. هل تعرفون هذا الرجل ؟ »

من جديد عاد اللغط ، ثم قال أحدهم ما نقله لى مترجمى :

- « كان يدعى (جيم) .. إنه ابن الغابة ولم يعطه أحد اسمًا إلا حين بلغ الحلم .. تربى وسط بعض (الكيكويو) الذين أنقذوا حياته وهو رضيع من نحو خمسين عامًا ، ولم يعرف له أبًا .. ثم ارتحل إلى الجنوب حيث اختلط بالبيض وصار منهم ، وتعلم لغتهم .. وتعلم فنون القتال وصار يبيع جهده لمن يدفع الثمن .. رحل كثيرًا جدًا وعاد كثيرًا وتزوج عشر نساء ..

« فى الأعوام الماضية جاءنا ومعه عدد من

البريطانيين الأشرار ، وراح يفرض سلطانه على القبائل ويحصل منها على ما يريد من طعام وشراب .. كان (جيم) يخيف (الكيكويو) كثيرًا ، وقال كثيرون أنه يشبه البريطانى القديم الميجور (آرثر) ، حتى كأنه روحه الشريرة وقد عادت ..

« انضممنا له لأننا نبحث عن القوة والسطوة .. وحاربنا القبائل معه إلى أن جاء اليوم الذى فيه قتله بعضهم .. يقال إنهم قطعوا رقبته وألقوها فى الدغل ، ويقال إنهم باعوها .. المهم أننا تفرقنا بعدها وعدنا لحياة القبيلة .. »

فرغت من عملى فوضعت العينات فى الحقائب وشكرتهم ..

والآن يبدأ العمل الحقيقى مع (الكالا آزار) ..

* * *

حين عدت إلى وحدة (سافارى) ، قرعت باب غرفة البروفسور (سينوريه) فوجدته بالداخل منهمكًا فى

رسم لوحة بألوان الجواش .. كانت تمثل أسدًا منقضًا على مجموعة من السود الذين اتخذوا أوضاعًا تمثيلية توحى بالرعب أو الاستسلام .. كان هذا الأسلوب هو أسلوب (ديلاكروا) بالضبط ، وخطر لى أن أساليب الرسم قد نفدت جميعًا فلم يعد المرء يقابل الجديد ..

جلست وقلت له :

ـ « أعتقد أن القضية قد حلت .. ولم تعد هناك ألغاز .. »

رفع حاجبيه مستفهمًا عما أعنيه بالضبط ، فقلت :

ـ « هذه الجمجمة التى قام (ويلسلى) بجمعها كانت جمجمة أخيه التوءم !! »

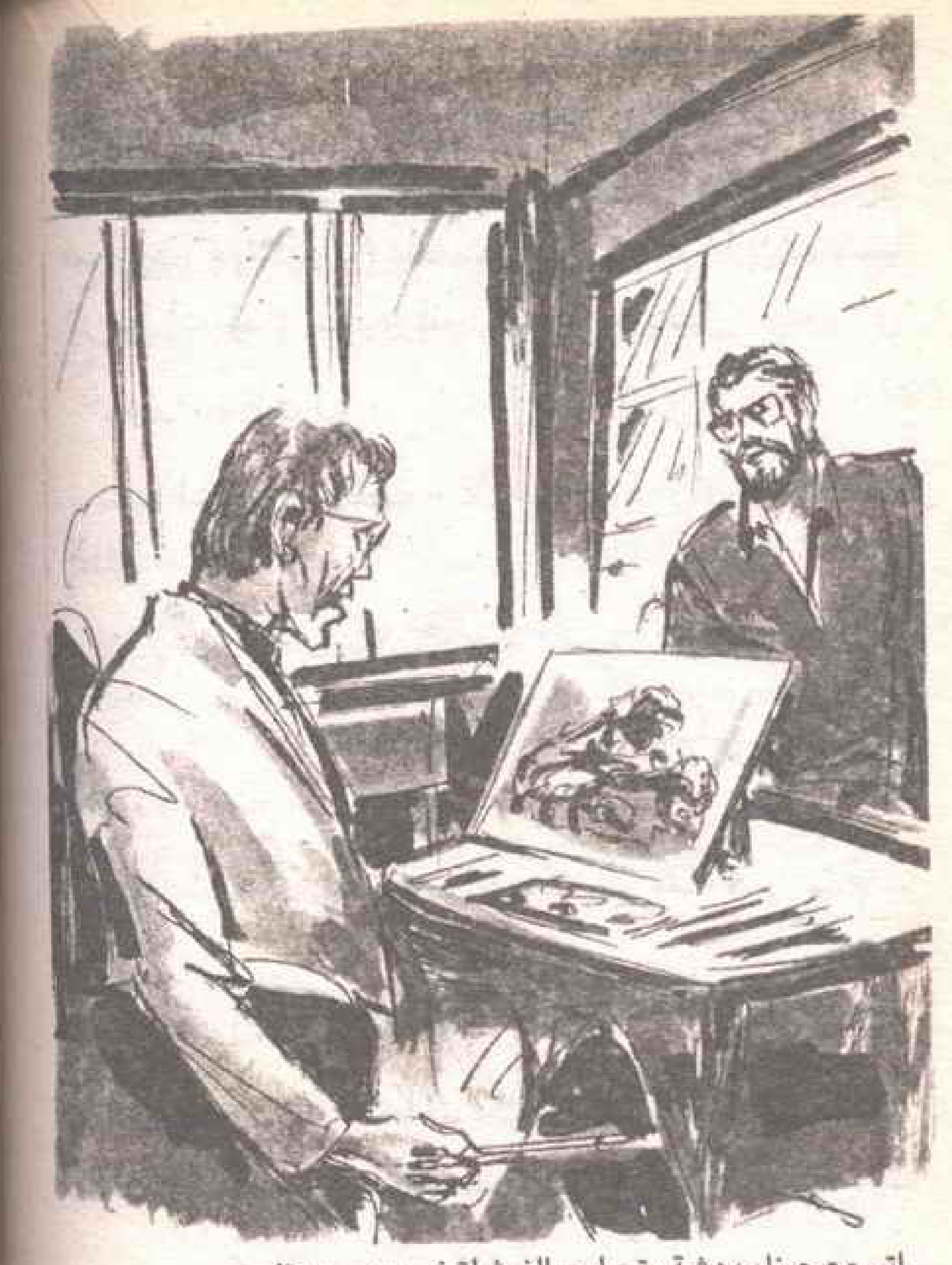
اتسعت عيناه دهشة وتصلبت الفرشاة فى يده .. وهتف :

ـ « (ويلسلى) له أخ توءم ؟ »

ـ « نعم .. الأم كانت حاملاً لكن أحدًا لم يعرف وقتها إن كانت تحمل توءمين أم لا .. وحين وضعت

حملها لم نعرف ما وضعته بالضبط لأن كل الشهود ماتوا على الفور فى ثورة (الماو الماو) الشهيرة .. فقط يذكر الناس أن أم (ويلسلى) كانت حاملاً .. ثم وجدوا الرضيع الموشك على الموت فى الدغل .. أطلقوا عليه اسم (جون) وربته إحدى الإرساليات حتى كبر وصار طبيبًا .. وعرف من هو ومن أسرته .. ربما لم يختر له أبوه اسم (جون) ، لكن كان من المستحيل أن تقابله لتسأله ..

« هناك رضيع آخر ألقى فى الدغل لكن الإرساليات لم تجده ولم تعرف بوجوده .. لكن رجال (الكيكويو) وجدوه وأخذوه معهم ليربوه .. وهنا تبرز أهمية البيئة فى التربية بشكل فريد من نوعه .. ليست الوراثة هى التى تصنع مجرمًا كما افترض (لامبروزو) يومًا ما .. التوءم الذى رباه الرهبان صار مهذبًا متعلمًا .. أما الذى رباه رجال الكيكويو البدائيون فصار وحشًا تقريبًا .. لم يعرف له أبًا ولا أمًّا ، لكنه عرف على الأقل لون بشرته .. وعرف أنه أوروبى ..



اتسعت عيناه دهشة وتصلبت الفرشاة فى يده .. وهتف :
ـ « (ويلسلى) له أخ توءم ؟ » ..

« فيما بعد صار له اسم هو (جيم) ، عرفه من أصدقائه الأوروبيين .. وتمرغ فى غبار إفريقيا وصارع وحوشها ، واختلط بأحط العينات الأوروبية التى تبحث عن الفرص بحثها عن الذهب فى القارة السوداء .. صار مرتزقًا يبيع سلاحه لمن يدفع أكثر .. ويبدو أن ملامحه التى ذكرت القوم بالميجور الإنجليزى (آرثر) جعلتهم يهابونه حقًا .. ويبدو أنه قضى أكثر حياته فى (تنزانيا) وليس (كينيا) ..

« هكذا تجد أن (كينيا) كان فيها توءمان لا يعرف أحدهما بوجود الآخر .. أحدهما يعمل فى (سافارى) والآخر يرهب الأهالى فى قرى النهر ..

« ثم كانت نهاية (جيم) - الذى لم يعرف أنه (ويلسلى) - قاسية حقًا .. وطار عنقه ، لأن هناك نقطة ينهار معها صبر الأهالى مهما طال .. وبعد خمسة أعوام قدم هذا الرأس هدية إلى أخيه أو بيع له .. وكان أن ركب (جون ويلسلى) ملامح الجمجمة وصدم حين رأى نفسه على المنضدة .. »

ساد الصمت ثم عاد الفرنسى يواصل الرسم مفكرًا .. سألنى بعد قليل :

- « هل أنت متأكد مما تقول ؟ »

- « هذه نتيجة بحث طويل مضن .. لست فضوليًا بشكل خاص ، لكنى أردت أن أزيل عن (ويلسلى) هواجسه العدمية هذه .. »

- « ثمة سؤال مهم هنا : لماذا يربى الرجلان شعر الوجه بذات الطريقة الغريبة ؟ اتصال السالفين بالشارب .. الخ ... لا تقل لى إنها الصدفة ! وكيف يتماثل أثر الجرحين فى الوجه ؟ »

- « أثر الجرحين حقًا لا يمكن تفسيره إلا بقانون الصدفة .. »

قلتها شاردًا ، ثم أضفت :

- « ومن قال إن (جيم) كان يربى شعر وجهه هكذا ؟ نحن افترضنا هذا لأن البروفسور أضافه إلى الجمجمة .. لكن من الوارد أن يكون (جيم) حليق الوجه تمامًا .. »

- « لا أظن هذا .. إن اللحية مهمة هنا جدًا لأنها تجعله مخيفًا بالنسبة للأهالى .. لا يمكن تصور مرتزق حليق الوجه .. ولا تنس أنه كان يدعى الميجور (آرثر) .. أى أنه كان يشبه العسكرى القديم كث الشارب والسالفين .. لكنك بالفعل محق .. لا يوجد شىء يدعونا إلى افتراض أن كلا الرجلين كان يربى شعر الوجه بالأسلوب ذاته .. »

ثم فكر من جديد وقال وهو يبرم طرف الفرشاة بأطراف أنامله :

- « سؤال آخر .. لا بد أن بعض القرى عرفت من يشبه الميجور (آرثر) مرتزقًا .. وفى نفس الوقت كان هناك طبيب يحمل الملامح ذاتها .. فكيف لم يعلق أحدهم ولم يندهش ؟ »

- « بل لا بد أنهم اندهشوا وقتها .. لكنهم تناسوا القصة كلها بعد ما فتكوا بالمرتزق (جيم) .. صار من الواجب أن ينسوا تمامًا أنهم رأوا رجلاً كهذا كى

لا تضايقهم الحكومة .. ولعلهم اختاروا تلك الجمجمة بالذات ليعطوها لـ (ويلسلى) على سبيل الدعابة الغليظة .. »

واصل (سينوريه) تحديد الشعيرات المنتفشة حول عنق الأسد فى الرسم ، وقال دون أن ينظر لى :

- « هذا بناء لا بأس به من المنطق .. لكن ينقصه شىء واحد .. الإثبات .. »

- « هذا هو ما حدث ولا جدال فيه .. أما عن الإثبات فلماذا تريده ؟ لقد مات (جيم) والقضية لا تهم أحدًا إلا (جون ويلسلى) .. هل ترى أن نخبره أن أخاه الوحيد مات ؟ مات بعدما عاشا دهرًا فى (كينيا) دون أن يلتقيا ؟ أن نخبره أن الجمجمة التى شكلها فى صبر ، ليست إلا جمجمة أخيه الذى ذبحه الكيكويو ؟ هل ترى أن نخبره أن أخاه كان مرتزقًا وكان بلطجى (كينيا) و(تنزانيا) ؟

« هناك أمور من الخير ألا ننبش فيها بعمق لأنها تجعل حياتنا جحيمًا .. »

قال فى تهكم دون أن يرفع رأسه :

- « أتراك لا تجد حياة (ويلسلى) جحيمًا الآن ؟ »

- « هى كذلك .. لكن ما نعرفه سيجعلها أسوأ بالتأكيد .. »

هنا سمعنا قرعات على الباب .. قرعات عصبية ملهوفة ..

* * *

- « الدكتور (ويلسلى) .. »

قالها الطبيب الألمانى الشاب الذى قرع الباب .. وكنت أعرف ما سيكمل به جملته :

- « لقد مات ! »

ونهضنا بلا انتظام نركض عبر ممرات الوحدة .. نركض إلى حيث كانوا قد وضعوا البروفسور تحت الملاحظة .. بينما قال الطبيب وهو يلهث انفعالاً :

- « طلب منى المدير أن أبحث عنكما .. »

زحام رهيب لا يمكن إلا أن يعنى كارثة .. عدد من رجال الأمن يقف على الباب المؤدى للعنبر ، وطبيبة هولندية تنهنه بالبكاء مطلقة فيضًا من حروف الشين والخاء .. ووسط الزحام برز لنا وجه (ستيجوود) المدير ممتقعًا قليلاً ، وقال :

- « لقد انتحر .. هناك أحمق ترك سكين الفاكهة فى متناول يده ! »

كنت أعرف هذا .. كنت واثقًا .. وفى كل مرة يتضح أننى على صواب وأنهم بلهاء ، ويبدو أن الغرور يتسلل إلى نفسى يومًا بعد يوم .. يخيل إلى أننى أذكى شخص أعرفه على الأقل فى (سافارى) هذه ..

قلت له فى ضيق :

- « رجالك مهملون .. كلنا كان يعرف أنه سيفعلها .. »

قال فى ضيق مماثل :

- « ليس من عملى حراسة الضمائر يا دكتور ..

وإلا كان بوسعك أن تأتى هنا لتفعل هذا بنفسك .. »

ثم أضاف فى عصبية :

- « لا أريد شوشرة .. إن سمعة الوحدة هى أهم شىء الآن .. »

تركته وشققت طريقى وسط الزحام حتى دخلت الغرفة .. وكان راقدًا هناك على الفراش ينظر للسقف بعينين لا تريان .. وفهمت أنه اختار الذراع الملاصقة للجدار حتى لا يشعر أحد بالنزف إلا بعد فوات الأوان .. مهملون حقًا .. لا بد أن عملية احتضاره استغرقت نحو ساعة على الأقل .. لكنهم لم يشتبهوا فى شىء وراحوا يمزحون فى الخارج ويلتهمون العشاء ..

نظرت إلى جانبى فوجدت (ستيجوود) يقف هناك وقد دس يديه فى جيبى معطفه ، وكف عن السماجة إظهارًا لاحترامه للموت .. هذه ضربة قوية له بالطبع .. أستاذ ينتحر فى وحدته وقد كان تحت الملاحظة .. لا بد أن مجلس إدارة (سافارى) سيفعل ما هو أكثر من مجرد شد أذنيه ..

قلت له وأنا انهض :

- « أين الورقة ؟ »

- « أية ورقة ؟ »

- « رسالته الأخيرة .. من النادر ألا يفسر المنتحر نفسه للعالم فى رسالة ما .. »

مد يده فى جيبه وناولنى ورقة .. فتحتها فوجدت خط (ويلسلى) المميز الأنيق :

كان لى أخ وقد فقدته قبل أن أعرف أنه لى .. والذى لم أعرفه قط هو أن الجمجمة التى سهرت أعيد تشكيلها كانت له ..

قال المدير وهو يستعيد الورقة ويدسها فى جيبه :

- « هل تفهم شيئًا من هذا الهراء ؟ أنت كنت أقرب الناس له فى الفترة الأخيرة .. »

قلت له وأنا ابتعد :

- « لا أنصحك بالاحتفاظ بهذه الورقة لأنها دليل .. وما كان لك أن تترك عليها كل هذه البصمات .. »

* * *

انتهت مأساة (ويلسلى) .. انتهت بطريقة مأساوية هى الأخرى ..

كيف عرف ما عرفته أنا ؟ هل أخبره أحد الزنوج أم أنه وصل لاستنتاجاته المنطقية الخاصة ؟ لن أعرف أبدًا ..

متضايق أنا حتى النخاع لأنه مات وقد عرف الحقيقة .. ربما كان الجهل أفضل له ، خاصة وهو لم يستفد كثيرًا من هذا العلم .. العلم الذى أوصله إلى لحظة اتخاذ القرار الأخير .. لقد كانت حياته مأساة إغريقية كاملة بين الحيرة والحرمان من الأبوين والوحدة ، ثم فى النهاية صدمة أن يجد جمجمته الخاصة ، وصدمة أن يعرف أنه كان له أخ وفقده قبل أن يلقاه .. كل هذه الصدمات انهالت على تكوين نفسى هش فنسفته نسفًا ..

لقد كانت هذه الآونة حزينة .. ليست مما يناسب أهم لحظات حياتى ، وكأننى توقعت أن تكون أيامى كلها أعراسًا وأفراحًا ونشوات .. لكن الحياة تمضى ، والبشر يولدون ويموتون .. وكفانى أننى فعلت ما استطعت كى أحفظ للرجل حياته وعقله .. ولو كان بوسعى أن أفعل أكثر لفعلت ، لكن هذا ـ للأسف ـ خارج نطاق عملى فى (سافارى) .

د. علاء عبد العظيم

بورو





سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكي يظل حياً ولكي يظل طبيباً

الجمجمة

نتحدث اليوم عن موضوع خاص جداً .. الجماجم ..
هناك من يكرهون الجماجم ، وهناك من يحبونها ،
وهناك من لايحملون نحوها عاطفة ما .. لكن قناع الموت
المخيف بضحكته العابثة الرهيبة ، لابد أن يثير فينا
بعض الخواطر ..

والجمجمة التي نتحدث عنها اليوم لم تكن جمجمة
عادية كالتي يدرس عليها طلبة الطب ، أو ترسم على
زجاجات الدواء ، أو يخيف الأطفال بعضهم بعضاً بقناع
يحمل صورتها ..

كانت جمجمة من نوع مختلف . وكانت لها قصة
مختلفة ..

د. أحمد خالد توفيق

مطابع

الثمن في مصر ٢٠٠

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

العدد القادم
المرض الأسود